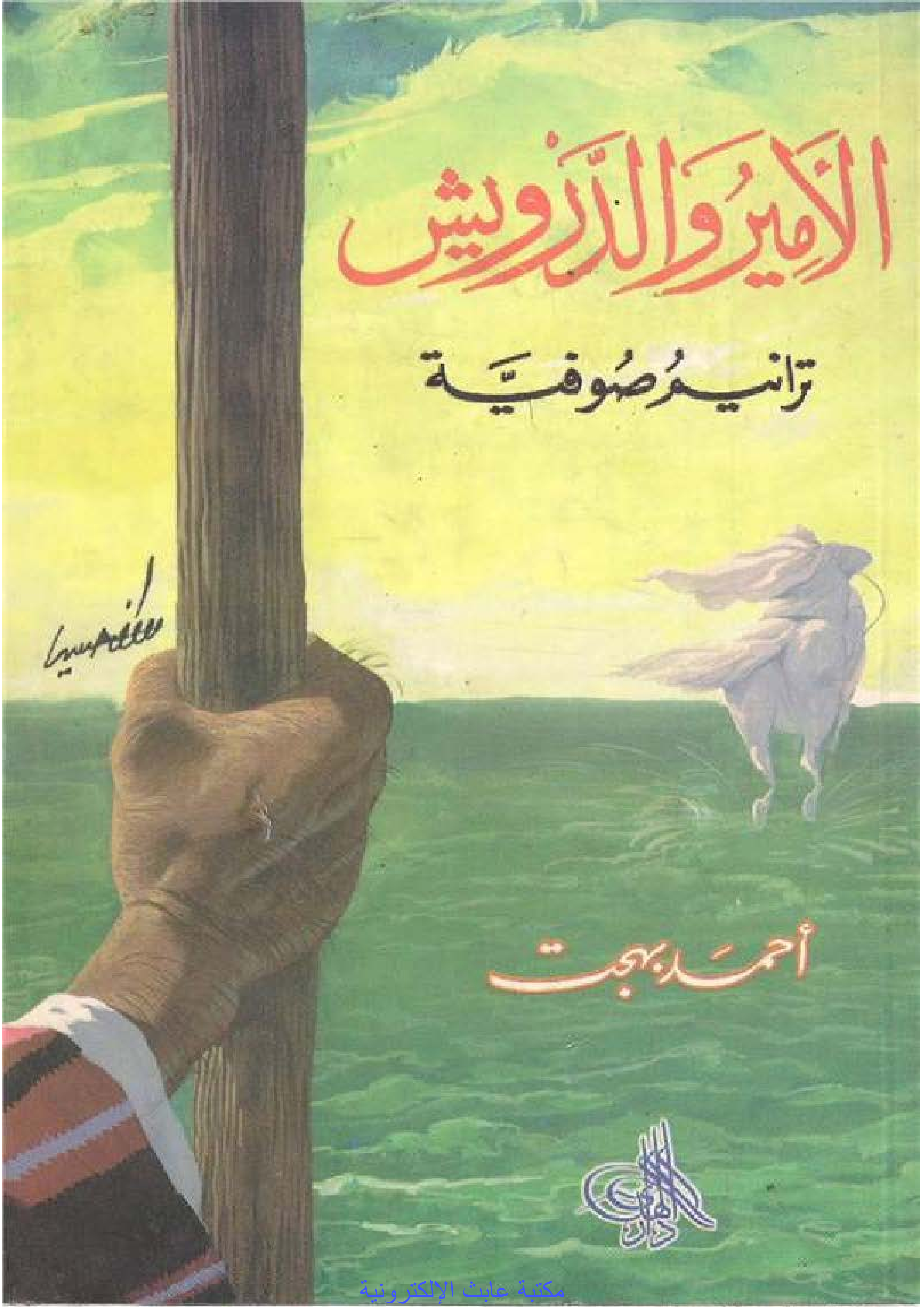
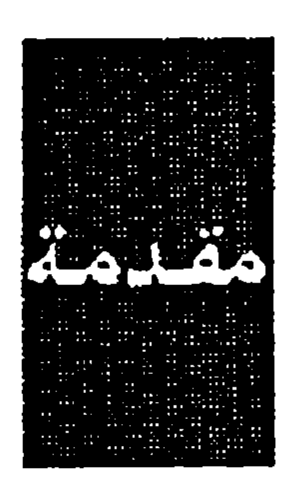

الأمير والدرويش
تراتيم صوفية
أحمد بهجت

الإهــــداء

إلــى كل باحث عــن الحقيقة

أحمد بهجت



نحن لا نعرف الكثير عن العارفين بالله . .

وفى التراث العربى ، والآثار الأدبية الصوفية جواهر كثيرة . . من بينها قصة أمير الممالك السبعة الذى خرج ذات يوم من قصره حافياً وراء درويش عابر . .

وقاده هذا الخروج الى الله . .

هناك من يعتقد أن هذا الأمير هو إبراهيم بن أدهم ، وهناك من يظن أنه بشر الحافى . .

ولعل هذا الغموض يمنح الخيال مزيداً من الحرية ، ويرفع من أمامه العوائق والحواجز . .

نحن أمام رجل يتلمس الطريق إلى معرفة نفسه ، ويلتمس بعد ذلك طريقه الى الله . .

إن انتقال الانسان من استسلامه للحس أو عبوديته له ، إلى إكتشاف الروح ، وسيطرة الروح على الحواس هو انتقال جدير بالتأمل . .

وهكذا انبعثت نفسي لى الكتابة عن الأمير إبراهيم بن أدهم ، وكان حاكماً على سبعة ممالك ، ولكنه خرج ذات يوم من هذا الملك كله ولم يعد إليه بعد ذلك . . جذبه الحق إليه . . كانت مملكة الروح التى إهتدى إليها تضىء قلبه بنور جديد ، وراحت كل أنوار الدنيا تتساقط أمام عينيه وتكشف عن مآلها للخراب والإندثار . .

كان ملكاً فصار درويشاً ، وكان غنياً فصار فقيراً ، وكان مشهوراً فصار مغموراً ، وبعد أن كان يتعالى على ثوب بالف دينار وصل به الحال لى حد ترقيع ثيابه وأسماله االبالية .

وقف إبراهيم بن أدهم ذات يوم على شاطىء النهر ليرقع ثوبه ، فسقطت منه الإبرة فى الماء ، كان يرقبه رجل يعرف ماضيه فقال الرجل فى نفسه ـ لا حول ولا قوة الا بالله . . إنحدر حال الأمير وضاعت الابرة التى يرقع بها ثيابه

إنحنى إبراهيم بن أدهم على مياه النهر وسأل : أين الأبرة . .

وخرجت من النهر الف سمكة فى فم كل واحدة منها إبرة من «الذهب » وأدرك الرجل الذى يعرف ماضى الأمير أن حاضره ليس بالبؤس الذى تصوره . .

هكذا تقول الأسطورة . . تُرى ما هى الحقيقة ؟

احمد بهجت

١

زحفت عتمة المساء على المدينة

وسرت حركة سريعة فى القاعة الداخلية فى قصر أمير الممالك السبعة، أضيئت الشموع المعطرة بالورد الخفيف والمسك ، وأعدت حشايا بطائنها من حرير ناعم .. وهيأت الجوارى مجلس الشراب للأمير، وفتحت أبواب شرفة هى جزء من حديقة النباتات النادرة التى تحيط بالقصر كله .

كان الأمير قد إستيقظ منذ ساعة ، وتناول قهوته المرة المعطرة باللبان والحبهان ، لعله يزيل بها ما خالط رأسه من شراب الأمس .. بعدها دخل الأمير إلى حمامه حيث يغطس فى مياه دافئه معطرة ، ثم يحاول بعدها مدلكه الخاص أن يرد الحيوية إلى جسده بعد أن ظل نائماً طيلة النهار . إن المشهور المعروف عن الأمير أنه نجم من نجوم الليل ، أنه يتوهج طوال الليل ، وينطفىء فى النهار وينام ، ومن هنا كان الوزير يحكم المملكة أثناء النهار ، طبقاً للتوجيهات السامية التى يتلقاها الأمير من اثناء الليل .. خاصة بعد أن يشع قلب الأمير من النشوة ، ويبدأ عقله فى الانطلاق والجموح مثل حصان عربى أصيل .

وما أغرب الأحوال التى كانت تتعاقب على نفس الأمير أثناء الليل ، أنه يتردد بين الرضا والغضب ، والإهتمام والسأم ، مثلما تتردد شعلة الشمعة أمام ريح هينة . .

خرج الأمير من حمامه إلى القاعة الداخلية . . إتخذ مجلسه على الوسائد الوثيرة ، ووقفت عند قدميه رئيسه جوارى القصر . . صبت له الجارية كأساً من شراب منعش وهمست تقول له .

ـ الوزير يتنظر منذ ساعة ، وكذلك قائد الجند .

لم يعقب الأمير بشىء على قول الجارية ، نظر أمامه إلى حديقة القصر فشاهد نفس المشهد الذى يراه كل يوم . . مجموعة الأشجار والنباتات التى لا يتميز لها شكل أو لون فى العتمة . . والتى تبدو حين تحركها الرياح مثل أشباح مخيفة . .

التفت الأمير إلى الجارية وقال : اليس غريباً أننى لم أشاهد هذه الحديقة أبداً فى النهار . . كيف يبدو شكلها فى ضوء الشمس . .

قالت الجارية : إنها تبدو بغير مولاى الأمير فى النهار موحشة مقفرة . . وأحس الأمير بالسأم فصمت . . قال فى نفسه . . اللعنة . . تنافقنى الجارية فيزيد سأمى .

أدركت الجارية بغريزتها الأنثوية أن الأمير يحس بالسأم . .

قالت له بنعومة : طال عمر الأمير وكان الموت من نصيب أعدائه ، لماذا يحس مولاى بالسأم وقد إشترينا بالأمس جارية رومية تجيد الرقص والغناء . . ولعل سأم الأمير يزول لو رآها . .

بقى الأمير على حاله ، ويبدأ موقفه مثل قط متخم لا تثيره قطعة السمك التى يغريه بها صاحبه .

تمتم الأمير من بين شفتيه : شبعت من الأجساد وأريد أن أعرف . .
لم تعرف الجارية ما الذى يقصده الأمير بعبارته فسكتت قليلا ثم أردفت تقول :

ـ الوزير ينتظر أن تأذن له بالدخول ، وكذلك قائد الجند .

تساءل الأمير لنفسه : من يدخل الليلة قبل الآخر ؟

قالت الجارية وهى تبتسم : لقد أدخلنا الوزير بالأمس فإغتم قائد الجند ، فلندخل قائد الجند اليوم ليغتم الوزير . .

أشار إليها أن تمضى فمضت ، كان يلعب أحياناً مع الجارية بمشاعر وزيره وقائد جنده ، وكان كالأطفال يعمد إلى القسوة ، وان كانت قسوة هدفها الضحك .

وفى هذا القصر . . كان أى شىء يمكن إغتفاره ليضحك الأمير أو يبتسم .

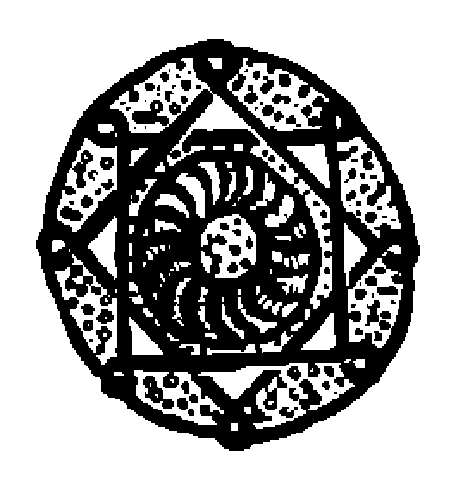
ابتلع الأمير ما فى كأسه ونظر حوله ، عبر ذهنه خاطر محير . .
يعرف أن كل الناس يطيعونه ، ولكنه لا يعرف من يحبه حقيقة . .

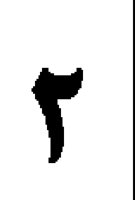
دخل قائد الجند وانحنى للأمير . .

كان وجهه يشيع بالرضا والسرور ، وأدرك الأمير أن القائد يحس بالرضا لأنه تقدم على الوزير فى دخوله ، وأدهش الأمير أن يكون مجرد

القرب منه داعياً لكل هذه البهجة ، وأن يكون مجرد البعد عنه داعياً لكل هذا الغم الذى لاح فى وجه الوزير وهو يدخل . .

وتساءل الأمير بينه وبين نفسه : إذا كان القرب منه منبعاً للبهجة ، فلماذا يحس هو بالتثاقل رغم أنه يعيش مع نفسه . . تغير إحساسه من البؤس إلى الكبرياء ، ساءل نفسه : أيكون وجودى مركز الكون وأصله ، بحيث يصير القرب منى حياة والبعد عنى ضياعا . . نظر الأمير لقادة المملكة وتأمل وجوههم . . لشد ما تبدو وجوههم مضحكة وهم يمثلون الوقار . . إبتسم الأمير حين وصل لهذا الجزء من تفكيره . . وتغير جو الوجوم السائد وتجرأت بعض الإبتسامات أخيراً على الظهور ومضت تتسلل إلى الشفاه على إستحياء .





أحس الأمير أنه جائع فجأه . . ولهذا لم يكمل ابتسامته . .

فتح الشراب الخفيف شهيته للطعام ، رفع رأسه ونظر إلى الجارية فأسرعت تجثو بأذنها تحت فمه ،أدار وجهه عنها وقال بصوت سمعه الجميع ـ لقد جاع ضيوفنا فأحضروا العشاء . .

مرقت الجارية مثل سهم مسرع واختفت وراء باب . . بعد لحظات فُتح الباب وبدأ تقديم الطعام .

حمل ثمانية رجال أربعة أطباق ضخمة من الفضة ، عليها أربعة خراف سمينة مشوية ، وضعت الخراف فوق تلال من الارز الذى تصاعدت منه توابل الهند وأفاويه السند .

قال الأمير وهو يمد يده للطعام : لا تملأوا بطونكم من هذا الصنف، فإن ما بعده أطيب منه كثيراً . .

مد الأمير يده واقتطع من أحد الخراف قطعة من اللحم واتجه بها نحو فمه ، قبل أن تصل إلى فمه نبح كلب نباحاً قوياً . . توقفت يد الأمير وسأل .

ـ كلب فى القصر . . من أين جاء . .

إنصرف قائد الحرس بعد إشارة الأمير ، وتوقفت أيدى الحضور مع يد الأمير ، وفى هذه اللحظة . . تسلل من الباب المفتوح على الحديقة كلب ضخم رمادى اللون من كلاب الرعاة .

نظر الكلب إلى الحاضرين نظرة عامة ثم ركز عينيه على قطعة اللحم فى يد الأمير . كانت نظراته تنطق بالمودة والشوق والرغبة والتوسل . . ضحك الأمير وألقى بقطعة اللحم فى الهواء نحو الكلب . .

قفز الكلب فى الهواء قفزة عالية والتقم قطعةاللحم وغيبها فى جوفه قبل أن يهبط إلى الأرض برشاقة . .

لم يكد الكلب يلمس الأرض حتى هز ذيله وتمطع وفرد جسمه ثم إعتدل وعاد يهز ذيله بود بالغ . .

نظر الأمير إلى الكلب وضحك . . مد يده مرة أخرى إلى الخروف المشوى واقتطع منه قطعة ضخمة وطيرها فى الهواء نحوالكلب . .

قفز الكلب فى الهواء وذيله يرقص خلفه ، إلتقم القطعة وهبط بها إلى الأرض وعالجها فى فمه وجسده كله يرقص . . إنتهى منها ومضى يهتز فى القاعة مثل موجة فرح كونى غامر ، موجة جاءت لا أحد يدرى من أين ، وستمضى لا أحد يدرى إلى أين . . وأحس الأمير أن مشاعره تغرق فى الموجة التى أحدثها الكلب .

توقف الكلب فجأة عن إبداء مشاعر الفرح ، كما توقف عن النظر للأمير وأدار وجهه إلى الخلف . . إتجهت الأنظار حيث نظر الكلب ،

ومن ظلام الحديقة خرج شبح لم ير أحد شكله فى البداية ، ثم خطا الشبح نحو ضوء القناديل والشموع .

إنكشف الشبح عن درويش يرتدى ثوباً من الصوف الخشن .. ، ويمسك فى يده عصاً طويلة كالرعلة .. أما وجه الدرويش فكان يعكس أحساساً بالحرج والإعتذار .. مضى الدرويش نحو الكلب وقال له بغضب هادىء وكأنه يد الله ـ تثبت لى كل يوم أنك كلب حقاً .. لماذا تسللت وراء رائحة الشواء ، لقد رأيتك وأنت تأكل من يد غيرى .. هل تبحث عن سيد جديد ؟

إنفجر الأمير ضاحكاً وتوقف الكلب عن هز ذيله وطواه بين قدميه كأنه خجل مما حدث ..

إلتفت الدرويش إلى الحاضرين وقال بحياء : معذرة أيها السادة ، لقد كان الكلب جائعاً ، وهو فى نهاية الأمر كلب لا يستطيع أن يتحكم فى غرائزه .

استل قائد الجند سيفه وخطا نحو الدرويش وهو يسأله .

ـ كيف دخلت إلى القصر .. كيف إخترقت نطاقات الحراسة .. أحس الكلب بالخطر فأسرع يقف فى طريق السيف وهو يكشر عن أنيابه .. رفع الأمير يده وأشار لقائد الجند أن يترك ضيفه .

قال الأمير : لا تروعوا ضيفنا الدرويش .. تقدم أيها الرجل وشاركنا عشاءنا المتواضع .. أنت وكلبك ضيفان علينا الليلة ..

سأل الدرويش ببراءة : من يكون صاحب هذا القصر .

قال الأمير ـ وهو يحس برغبة فى اللهو ـ صاحب هذا القصر له سر فهل تكتم السر . .

قال الدرويش : أكتم إن شاء الله ، لو كان الكتمان بمقدورى .

قال الأمير : صاحب هذا القصر زعيم عصابة تقطع الطريق على القوافل ، وتسرق أموالهم . . وأنا صاحب القصر . . هل تكتم السر أم تذيعه ؟

قال الدرويش : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم إلتفت إلى الكلب وخاطبه بعتاب قاس : أرأيت كيف قادتنا دناوتك إلى المصيبة . . وإلتفت الدرويش إلى الأمير يحدثه : ألا تجيدون عملا آخر غير السرقة . .

قال الأمير وهو يمسك نفسه لكى لا ينفجر فى الضحك : لو كنا نجيد عملاً آخر لعملناه . . أما وقد عرفت سرنا فأن عليك أن تنضم إلينا ، وإلا قتلناك . . إجلس لتأكل معنا . . إجلس .

جلس الدرويش وقال للأمير : ليست لى نفسى رغبة للطعام . .

قال الأمير وهو يمثل دور الغضب : أنت تنوى بنا شراً مادمت لا تشاركنا ، لقد حكمت على نفسك بالموت .

قال الدرويش : دعونى أحدثكم عن قصة الرجل الذى حكموا عليه بضرب عنقه . . لقد تم تعليق الرجل وهو مكبل بالأصفاد ، وقبل أن تحين ساعة القتل تعطفت عليه زوجه الجلاد بكسرة من الخبز . . وأقبل الجلاد ممسكاً سيفه ، فرأى المسكين وكسرة الخبز فى يده ، قال له

ـ أيها الحقير .. من أعطاك هذا الخبز

قال المحكوم عليه : أعطتنى أياه زوجتك ..

لم يكد الجلاد يسمع كلام السجين حتى قال له : لقد أصبح قتلك محرماً علينا ايها الرجل . لأن كل من أكل خبزنا ، لا يمكن رفع اليدبالسيف نحوه ، إن أرواحنا لا يمكن أن تكره من أكل خبزنا .

قال الأمير : ماذا تعنى

قال الدرويش : لقد أكل كلبى من طعامك فكأننى أكلت منه ، وبذلك صارت دمائى ودماء الكلب محرمة عليك .

ضحك الأمير ضحكا مجلجلا وقال للدرويش : هذا منطق يعنى أنك تنضم الينا .. هل تجيد السرقة .

قال الدرويش : لست أنصح باصطحابى معكم أثناء هجومكم على القوافل ، إننى يمكن أن أثير إضطراباً وحيرة أكثر مما أساعد .. أطلقوا سراحى وسوف أتنزل لكم عن كل ما معى ..

قال الأمير وهو ينهض ويقترب منه : هذا كلام طيب أيها الدرويش ..

ـ كم معك من النقود ..

مد الدرويش يده فى جيبه وأخرجها فارغة .. ثم مد يده فى جيبه الأخرى وأخرج شيئاً من ملابسه ..

سأله الأمير : ما هذا أيها الدرويش ..

قال الدرويش : هذا نصف فلس ، وهو كل ما معى ، ولست أظن أن حياتى تزيد كثيراً عن ربع فلس ، إليكم ربع فلس واتركوا لى الربع الآخر . . ودعونى أنصرف فقد تذكرت أشياء ينبغى على فعلها . .

قال الأمير : إلى أين تذهب أيها الدرويش ، لم نضحك هكذا منذ زمان بعيد ، إجلس وشاركنا طعامنا . . قالها الأمير وهو يضع سيفه على رقبة الدرويش . .

جلس الدرويش ومد يده إلى الطعام وهو يتمتم : فمن إضطر غير باغ ولاعاد فلا إثم عليه .

جلس الدرويش أمام الأمير ، وجثم الكلب بين قدمى الأمير . . بسط الكلب ذراعيه ووضع رأسه بينهما وأغمض عينيه نصف إغماضة ومضى يهز ذيله . .

قال الدرويش هامساً للأمير : هذا الكلب لايحب اللصوص ، كيف يأنس إليك وأنت زعيم عصبة للصوص . .

قال الأمير وهو يضحك : لا تخلو الكلاب من ذكاء ، لقد فهم الكلب حقيقة الوضع واستسلم لقدره ، إما أنت فلازلت تقاوم ، لم تحدثنى عن رأيك فى الطعام ، هل تعرض الشواء للنار أكثر مما ينبغى أو أقل مما يجب . .

قال الدرويش واللقمة تكاد تقف فى حلقه . دخلت ذبابة ترتزق من بيت عنكبوت . . سألتها العنكبوت ـ وهى تلتهمها ـ أى شىء تفضله فى العشاء . .

ضحك الأمير وألقى قطعة من اللحم إلى الكلب . .

هز الكلب ذيله ولكنه لم ينهض من مكانه . . إتسعت دهشة الأمير وسأل الدرويش ـ لماذا لا يأكل الكلب . . هل هو مريض .

قال الدرويش : ليس مريضاً ، ولكنه يجيبك على سؤالك الخاص بالشواء . . لقد تعرض الشواء للنار أكثر مما ينبغى . .

تحرك الدرويش واتجه نحو الكلب وقال يخاطبه ـ لقد ترجمت شعورك لصاحب القصر ، تستطيع الآن أن تأكل قطعة اللحم ولو من باب المجاملة . . نحن ضيوف ويجب ألا نحرج مضيفنا . .

نهض الكلب متاقلا وشم قطعه اللحم ثم وضع يديه عليها واقترب منها بفمه ولم يلبث أن غيبها وسط أنيابه . .

ضحك الأمير على مشهد الكلب إلى الحد الذى إختل فيه توازنه ومال على جنبه وسقط بين الحشايا وهو يضحك . .

همس قائد الجند لقائد الحرس : لست أدرى ما الذى يجده الأمير من متعه فى هذا العبث . . هذا درويش أفاق ولعله من الحواة وقد درب كلبه على أداء هذا الدور . .

قال قائد الحرس : لست مشغولا بالكلب ، إنما يشغلنى أمر الأمير ، من يدرينا أن هذا الدرويش ليس رسول شر من عدونا ، ولعله يسحب خنجراً من ثيابه ويغمده فى صدر الأمير . . سوف نرى من المسئول عن تسلله إلى القصر .

أثار سلوك الكلب مع قطعة اللحم تعليقات متباينة من الحاضرين .

قال الوزير يجامل الأمير : الكلب مضحك بصورة ليست عادية . .

وقال قائد الحرس وهو يتحرك حتى أصبح يحول بجسده بين الأمير والدرويش : يبدو لى أن الكلب مدرب على هذه اللعبة . .

قال القاضى : لم أر كلباً يتباطأ فى التهام اللحم مثل هذا الكلب . .

وكان المفتى وهو ضرير يميل على تابعه ويسأله لماذا يضحك الأمير، عندئذ يحدثه التابع عما يجرى . .

وطوال الوقت الذى دار فيه الحديث عن الكلب ، كان الكلب نفسه يجلس جلسته الأثيرة ، وهو باسط ذراعيه أمامه ، وقد وضع رأسه على الأرض بينهما . . وفى عينيه نظرة نعسانة راضية ، ومضى يتابع الحديث الذى يجرى عنه عن طريق تحريك أذنيه فى اتجاه الصوت . .

لاحظ الأمير هذه الحركة فقال متعجباً : الكلب يدرك أننا نتحدث عنه ، انظروا لأذنيه . .

هزالكلب ذيله وهو راقد فى مكانه عندما تكلم الأمير . . وأحس الأمير فجأة أن شعوراً من لون غامض وغير مألوف يربطه بهذا الكلب الذى لم يره سوى اليوم . .

أخيراً عثر الأمير على كائن يعشقه دون أن يدرى أنه أمير . . دخلت جارية تصب الشراب فشاهدت الكلب فتحولت إلى ما يشبه تمثالاً جُمد فى مكانه . . كان الأمير قد مد يده بالكأس الفارغ لتملأه الجارية ، ولكن الكأس ظلت خفيفة فى يده ، نظر الأمير لكأسه وحدج الجارية بغضب وسألها بعنف مفاجىء : لماذا تباطئين؟

قالت الجارية وجسدها كله ينتفض : الكلب يا مولاى .

قال الأمير : مابال الكلب . .

لم تعرف الجارية ماذا تقول من فرط خوفها فتمتمت من بين أسنانها وهى تشير إلى الكلب ـ أن رائحته تزكم الأنوف . . ضحك الأمير من قلبه ومال على الكلب وقرب أنفه من رأس الكلب وراح يتشممه ، عاد يعتدل فى مجلسه ويسأل الدرويش : متى كانت المرة الأخيرة التى استحم فيها الكلب . .

قال الدرويش وهو يفكر قليلاً : كان ذلك فى الهند . . منذ ثلاثة أعوام .

قال الأمير : ليستحم الكلب الآن . . هنا . . بيتنا . .

صمت الحاضرون تماماً ، وأصدر الأمير مجموعة من الأوامر المتلاحقة . قال : أحضروا طشتاً ضخماً وميله دافئة للكلب ، وأحضروا العطور التى تعطرون بها حمامى الخاص وضعوها فى حمام الكلب ، أحضروا الصابون المعطر الذى أستخدمه لتغسله به . هذا الكلب ضيفنا الليلة ، ومن حق الضيف أن يعامل كأهل الدار .

إنتهى الأمير من كلماته وإلتفت إلى الدرويش وقال : لقد أهين ضيفنا، وقالت عنه جارية لا تساوى فلساً إن له رائحة تزكم الأنوف . . سنثبت للجارية حين يستحم الكلب إن رائحته أطيب من رائحتها . .

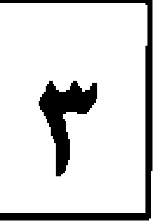
ظل وجه الدرويش على جموده ، سأله الأمير

ـ الا تبتسم أيها الدرويش أبداً . . ؟ ماذا تقول فيما قلته عن حمام الكلب ؟ . .

قال الدرويش : هذه مسألة تخص الكلب بوصفه ضيفك . . وليس من حقي إن أتدخل بينك وبين ضيفك . .

قال الأمير : أسرعوا أذن بحمام الكلب . .





وصلت المياه المعطره فى أحواض من الفضة ، وطلب الأمير الكوز الذهب الذى يستحم به هو ، ووصل الصابون ونهض الأمير واقفاً وقال للدرويش : إمسك أنت الكلب جيداً ودعنى أصب عليه الماء .. ولندلك جسده بالصابون ، ولنعطره بالمسك ونرى ماذا يكون من أمره أمسك الدرويش الكلب من رقبته وساقه نحو المياه .. بدا الكلب وهو يساق نحو المياه مثل كائن يساق إلى حلبة الإعدام ..

كان يرتعش ويقاوم ويزوم ويتشبث بالأرض حتى بدأ الأمير يصب عليه الماء ويدلكه بالصابون .

عندئذ .. إستسلم الكلب تماماً .. وعكست نظراته إحساس مخلوق كان يمضى فى طريقه آمنا ، ثم وقع فجأه فى مصيبة لا يبدو أن هناك أملاً فى الفكاك منها ..

مضى الأمير يدلك جسد الكلب بالصابون المعطر والجوارى تصب المياه طبقاً لأوامره ، حتى إنكشف جسد الكلب الأسود عن لون أبيض ناصع البياض .. نهض الأمير مبلل الملابس وقال : أحضروا المناشف .. قفز الكلب من حوض الماء وسار خطوتين فى القاعة ثم وقف وهز

نفسه يميناً ويساراً بسرعة متلاحقة فتخلص من معظم المياه على جسده .. وتطاير رذاذ الماء على الجالسين جميعاً ..

تساءل المفتى ـ وكان ضريراً ـ ماذا يحدث .. هل تمطر الدنيا ..

مال تابعه عليه وهمس فى أذنه أن الكلب قد هز نفسه ونطر ما عليه من مياه فاغرق الجالسين جميعا ..

زعق المفتى وهو فى مكانة : هذه نجاسة .. لقد نجسنا الكلب جميعاً .. ماذا نفعل الآن ..

توقف الأمير عن الضحك وقطب .. أحس بالسأم فجاءه من كل ما يجرى من عبث ، وكف الجالسون عن الضحك ، ومال تابع المفتى عليه وقال له همساً : أغضبت كلمتك الأمير فوجم ..

قال المفتى مستدركاً ـ الكلاب عند المالكية لا تنجس ، مادام سؤرها بعيداً عنا ..

تحول الأمير فجأة من الإهتمام إلى السأم .. كان الكلب قد إختفى فى ظلام الحديقة وراح ينطر جسده بعيداً عنهم ، وتوافق سأم الأمير مع اختفاء الكلب ، ومن هنا فقد قال بصوت نافذ الصبر : ماذا بعد ذلك ..

تصور المفتى أن الأمير يسأله فقال ـ ليس بعد ذلك شيء سوى الإستحمام والتطهر .

قال الأمير : بمن نبدأ

قال الوزير ـ محاولا مجاراة الأمير فى عبثه ـ ليستحم الدرويش . . التفت الأمير إلى الدرويش وسأله : ماذا تقول فى هذا الرأى . . تحرك الدرويش وواجه الأمير وقال بهدوء ناعم أثار خوف الأمير

ـ أراكم تحاولون تعريتى والسخرية منى . . لا بأس . . لقد بدأتم بالشر . . وأصبح من حقى أن أرد عليكم واحداً واحداً . . ولنبدأ بكبيركم هذا أو أميركم . . إن الملل والسآمة يعذبانه ، إن الملل ينسدل عليه كالستار ، يغشله كالضباب ، يلتصق به كالصلصال ، يحوطه كالهواء ، يتغلغل فى دمه ، فى نفسه . . فى عقله . يتشر منه ومن كل شىء حوله ، من الأدوات والفراغ ، ومن الأرض والسماء ، هذا الأمير الضجر يرى حلماً يتكرر فى منامه كل ليلة ، حلماً لوجه ما . . هل أستطرد .

نظر الدرويش فى وجه الأمير . .

كان وجه الأمير ممتقعاً كأن أحداً قد طعنه فى قلبه . . إجتاحت الأمير موجة من الحزن الداخلى العميق وشدد الضغط على أسنانه وأشار بيده إلى الدرويش أن يصمت . . واستدار الدرويش واتجه نحو الوزير . .

سار الدرويش خطوتين ووقف أمام الوزير . . قال وهو يبتسم : سوف أتحدث بالأشارةوالتلميح بدلاً من التصريح . . والآن من أين نبدأ . . هل نبدأ من الرسالة التى وصلتك منذ ثلاثة أيام ، أم نتحدث عن الصندوق الذى يضم الرسالة ، وهو صندوق لا يغادر مفتاحه جيبك حتى فى نومك . . هل أستطرد . .

أصفر وجه الوزير وأسقط فى يده ، سأل نفسه كيف عرف الدرويش بأمر الرسالة . أن الرسالة من أعداء الأمير ، وهو متواطىء معهم ، كيف عرف الدرويش هذا السر ؟ إن أفضل ما يفعله أن يغمد خنجره فى صدر الدرويش ، تسللت يده إلى سلاحه ولكن الدرويش إبتعد عنه ومضى نحو القاضى . .

وقال يخاطب القاضى : زارك بالأمس ضيف . . دار بينكما حوار طويل ، نسى الضيف بعده كيساً صغيراً تحت الحشية التى كان يجلس فوقها . . وكان الكيس يصدر عنه رنين إذا تحرك . .

ترك الدرويش القاضى والتفت إلى قائد الجند ومضى يحدثه حديثاً غامضاً لا يفهمه من الحاضرين سوى المقصود به ، وكان يأتى إلى مرحلة معينه فى الحديث ويسأل : هل أستمر أم أتوقف . . وكانت نظرات المستمع تتوسل إليه أن يتوقف . .

وهكذا تحدث الدرويش مع قائد الحرس ، ومع المفتى ، وراح يداعب كل واحد بقوة مستترة ولا يتركه الا محتبس الأنفاس ممتقع الوجه . . وكان الأمير يرقب ما يجرى دون أن يعلق بشىء عليه . .

كان الأمير ذاته مذهولاً من كلمات الدرويش معه عن الألم وعن الحلم الذى يتكرر فى منامه . . كيف يعرف الدرويش حلماً لم يفش سره لمخلوق منذ أن حدث . . أى قوة يملكها الدرويش . . أى قوة غامضة ورهيبة فى نفس الوقت . .

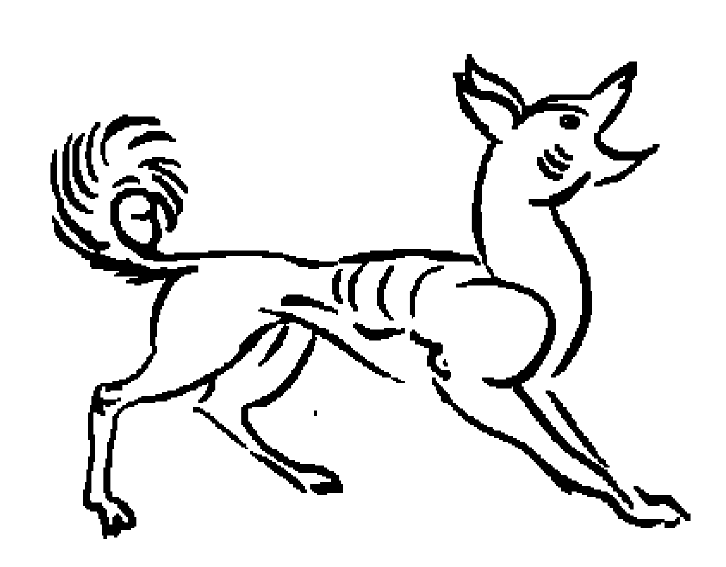
تمالك الأمير أعصابه وتقدم نحو الدرويش وقال له ـ دعك منهم أيها الدرويش المبارك . . حدثنى أنا . . كيف عرفت ما عرفته .

تجاهل الدرويش سؤال الأمير وسأل سؤالاً طائراً للحاضرين جميعاً .. قال : صاحب هذا القصر .. هل هو حر .. أم عبد ؟

قال الوزير غاضباً : حر أيها الدرويش ..

قال الدرويش غاضباً : هذا ما رجحته .. يستحيل أن يكون هذا سلوك عبد .. قال الدرويش كلمته وخرج من حيث جاء ، واندفع الأمير وراءه ، وقالت الجارية .

خرج الأمير حافياً وراء الدرويش .



٤

إخترق الدرويش حديقة القصر وشق طريقه نحو الفناء الخارجى الذى ينتهى بأسوار القصر ، وأسرع الأمير فى سيره ليدركه ، قال الأمير حانقا : لماذا تسرع أيها الدرويش الطيب ، إنتظرنى حتى ألحق بك . .
توقف الدرويش واستدار يسأل الأمير .

- ماذا تبغى . . ؟ قال الأمير : أبغى الصحبة . .

قال الدرويش : حياتنا قاسية ولن تحتمل . .

قال الأمير : أنت لا تعرفنى !

رد الدرويش بإستهانة : أنت وشأنك . . ثم استدار وسار وانطلق وراءه الأمير . .

سأله الأمير : كيف عرفت بأمر الحلم الذى يتراءى لى فى المنام ، وكيف تعرف بأمر الوزير والقاضى . . وبماذا حدثت المفتى . . ؟

قال الدرويش وهو يقطب : للمعرفة أنواع ، والمؤمن ينظر بنور الله ، وما رأيته بعد ذلك كان لعب صبيان . .

خرج الأمير والدرويش من باب خلفى فى القصر ، كان الكلب

يتظرها وهو يهز ذيله ، نبح الكلب حين ظهر واحد من ضباط الحرس وهو يحمل عباءة الأمير وسيفه ونعله . . أخذ الأمير عباءته وسيفه ونسى نعله . . أسرع وراء الدرويش وقال للضابط ـ لا أريد حراسة معى . . عودوا إلى القصر . .

كان الكلب يسير أمام الأمير وخلف الدرويش ، وكان يلتفت كل لحظتين للأمير ليطمئن على سيره معهما ، كان الدرويش يسبق الأمير فأسرع الأمير حتى وصل إلى الدرويش وسار جواره . .

قال الأمير : فى عقل أسئلة كثيرة أبحث عن أجابات لها . . هل أنتظر منك العون .

قال الدرويش : أنت تبحث أكثر مما ينبغى ، ونتيجة لبحثك هذا فلن تعثر على شىء . .

سأله الأمير : كيف يكون البحث مدعاة للفشل ؟

قال الدرويش : عندما يبحث انسان عن شىء ما ، فانه لا يرى عادة الا ما يبحث عنه ، وهذا يعنى عجزه عن رؤية شىء آخر ، ولقد يكون جواب السؤال كامناً فى هذا الشىء الآخر . .

قال الأمير : لست أفهمك . .

قال الدرويش : ان الباحث عن شىء يفكر فى الشىء الذى يبحث عنه ، ان له هدفاً . . وهو أسير هذا الهدف ، البحث معناه أن يكون لك هدف ، أما العثور فمعناه أن يكون الانسان حراً ، أن يكون متلقياً . . ألا يكون له هدف . . ان سعيك نحو الهدف وتثبيت عينيك عليه جعلك لا تبصر ما يجرى تحت أنفك . . هل فهمتنى .

قال الأمير : بل إزددت حيرة . .

سأل الدرويش : لماذا تزداد حيرة . .

قال الأمير : سألتنا فى القصر عن صاحب القصر ، هل هو حر أم عبد ، قلنا لك أنه حر فغضبت ، ولكنك الآن تدعو إلى الحرية وتقول أنه بدونها لا يعثر الانسان على شيء .

قال الدرويش : أنت تخلط أيها الأمير . . كنت أسألك فى القصر عن موقفك مع الله ، هل أنت حر مع الله أم عبد معه ، قلت أنك حر مع الله ، ولهذا فلست حراً مع نفسك . . إنما أنت عبد لها ، وعبد النفس لايعثر على شيء .

صمت الأمير قليلا وعاد يسأل : لو كنت عبداً مع الله فهل أكون حراً مع نفسى .

قال الدرويش : نعم . . الحرية مع الله حجاب نعوذ بالله منه . .

فكر الأمير فيما يقوله الدرويش وسار صامتاً . . ان احساساً جديداً يولد فى نفسه . . لقد إنهزم فى معركه مع السأم ، وإستسلم تماماً له ، وبدت له الحياة مجموعة من الخطوط العبثية التى تلتقى وتفترق دون معنى ظاهر ، وبات الخروج من هذا كله يلح على نفس الأمير الحاحاً يكاد يخنقه ، وها هو أخيراً يخرج . . لم يكن فى ذهنه شيء محدد ، ان عشرات الأسئلة تتدافع فى رأسه مثل موج يسبح على الشاطىء ثم يرتد إلى البحر ليغرق فى موجة جديده . . ظل الدرويش يسير حتى خرج من المدينة ، ووصلا إلى منطقة المقابر . . كان الكلب يتقدمهما وهو يهز نفسه وينفض عن جسده ما بقى من مياه الحمام القهرى . .

لاحظ الأمير أن الدرويش يخترق منطقة المقابر ، توقف وسأل : لماذا تخترق طريق المقابر . .

قال الدرويش : هل يحس الأمير بالخوف ؟

قال الأمير : ليس الخوف ما أحسه . . أنما هو الإنقباض . . دعنا نسير فى طريق آخر . .

قال الدرويش : نحن فى طريقنا إلى الجبل ، وطريق الجبل يمر بالمقابر . . إشتد البرد فلف الأمير عباءته على جسده وخبأ سيفه تحتها وأمسكه بيده اليسرى ومضى يوسع خطواته ليلحق بالدرويش . .

قال الأمير وهو يسير جوار الدرويش : لقد فاتتنى أشياء كثيرة . .
قال الدرويش : كل ما فاتك من الله سوى الله يسير ، وكل حظ لك من الله سوى الله قليل . .

مضى الأمير يتدبر معنى العبارة فى ذهنه ، حتى إذا وعاها غمتم من بين شفتيه : إن حظى قليل فى الدنيا طبقاً لعبارتك . .

قال الدرويش : هذا صحيح . . أنت رجل عظيم البؤس رغم أنك أمير المدائن السبعة . .

عبر الأمير والدرويش منطقة المقابر الموحشة ، وإشتد البرد وضاق الطريق وظهر الجبل شامخاً مثل كتلة من السواد . . أحس الأمير بالرهبة، ولكنه سار وراء الدرويش والكلب وهما يصعدان الجبل ، أدهشه أن يرى الدرويش والكلب طريقهما وسط هذا الظلام الحالك . .
تعثر الأمير وهو يصعد الجبل ، واضطر ان يستخدم سيفه كعصا يتوكأ

عليها للصعود ، وإكتشف أنه يسير حافياً على صخور الجبل الحادة التى أدمت قدميه . .

توقف الكلب فجأه ونبح . . وجاء من جوف الظلمة صوت يسأل - من هناك ؟

قال الدرويش : دراويش يسكنون فى الجبل . . قال الصوت

- سيروا أذن سالمين . .

سأل الأمير همساً : من هؤلاء . . ؟

قال الدرويش : هؤلاء لصوص المقابر وهم يسكنون فى الجبل . . سأل الأمير مندهشاً . ماذا يسرقون من المقابر ؟

قال الدرويش : الأكفان . . الأسنان الذهب . . شواهد القبور الرخامية . . أى شىء يجدونه . .

سأل الأمير : أين شرطة المدينة . .

قال الدرويش : - انهم يحرسون قصرك . .

عاد الأمير يسأل : لماذا لا يحرسون المدنية والمقابر ؟

قال الدرويش : تركوا مهمة الحراسة للصوص ، وهم يتقاسمون معهم ما يسرقونه . . .

سأل الأمير غاضباً : هل وصل الفساد فى المملكة لهذا الحد ؟

قال الدرويش : بل تجاوزه . .

سأل الأمير نفسه : كيف لم يبلغنى ذلك ؟

قال الدرويش : لقد أقامت بطانتك حولك أكثر من حجاب ، لم تعد ترى إلا ما يقولونه لك ، وهو كذب ، ولم تعد تسمع إلا ما يعرفون أنك تحب أن تسمعه . . وهو كذب . . لقد حاصرتك الأكاذيب مثل بحر عظيم يمتلىء بالمرعبات وليست فيه سوى جزيرة واحدة . .

صعد الدرويش ومضى الأمير يصعد وراءه . .

كان الطريق يزداد وعورة كلما أوغلا فى السير ، وكان الكلب يتقدمها وهو يتشمم الأرض أحياناً ، ويزيح بيده التراب ويتشمم ثم يعاود السير . . وبدت الرحلة للأمير وكأنها لا تريد أن تنتهى . .

كان البرد يزداد شدة كلما صعدا فى الجبل . . ولكن الحركة المتابعة للأمير جعلته لا يحس بالبرد . . انه يتصبب عرقاً الآن ، وهو يقاوم لآخر قطرة فى إرادته . . حين أحس الأمير أنه لم يعد قادراً على الصعود توقف ، وتوقف الدرويش وقال له ـ لقد وصلنا أخيراً إلى كهفنا الذى نتام فيه الليلة . .

نظر الأمير حوله يبحث عن الكهف فلم يميز سوى بقع من الظلمة . . فسأل الدرويش : أين الكهف ؟ . .

قال الدرويش : إنتظر حتى نشعل النار وسوف تراه . . أسرع الدرويش يخطو فى الظلام حيث اختفى . . وبقى الأمير وحده واقفاً مع الكلب . .

إنتظر الأمير طويلاً فلما استبطأ الدرويش جلس على الأرض . . وربض الكلب أمامه وهو يهز ذيله . . مد الأمير يده وراح يربت على

رأس الكلب . . ثم قرب رأسه منه وتشممه وقال : ما أطيب رائحتك الآن . . أين الجارية التى تأففت من وجودك . .

أضىء المكان حين ظهر الدرويش وهو يحمل مشعلاً فى يده ، وبدت فتحة سوداء لكهف قريب . . دخل الدرويش الكهف ونهض الأمير ونهض الكلب يدخلان وراءه .

كان الكهف حفرة غائرة فى الجبل . . كانت أرضه وحيطانه وسقفه من صخور الجبل اللامعة السوداء . . وعلى الأرض كانت هناك حصيرتان صنعا من الليف الخشن . . أما الوسادات فكانت قطعاً من الحجارة التى سويت بقدر الإمكان ، وعند رأسى كل فراش كان هناك كوز وأبريق وطست . . ولا شىء بعد ذلك فى الكوخ . .

نظر الأمير إلى الفراشين وسأل الدرويش هل كنت تعلم أننى سأصحبك حتى أعددت لى هذا الفراش .

لم يرد الدرويش بشىء ، وعلق المشعل فى ثقب غائر فى الحائط ومضى نحو فراشه . . وقال للأمير : سيخبو ضوء المشعل بعد ساعة ، سأنام الآن فنم أنت كما تحب . . تمدد الدرويش على فراشه ووضع يده فوق رأسه وإنزلق إلى النوم .

جلس الأمير فوق فراشه وتحسس خشونته ، تأمل قدميه الحافتين الداميتين من الصخور ، ثم تمدد على الفراش وغطى نفسه بعباءته وأحس براحة عميقة . . كانت الرحلة قد أرهقته تماماً . . وبدت له الوسادة الصخرية أكثر حناناً عليه من وسائد الريش التى كان

يستخدمها فى قصره ، وتغرق رأسه فيها ، وأحس الأمير أنه كان يغرق فى قصره ، كان إحساسه أنه يهوى فى الماء نحو القاع ، ثم جاء الدرويش وانتشله من البحر وسبح به عائداً إلى الشاطىء ، ويبدا فراشه فى الكهف مثل شاطىء النجاة الذى عثر على نفسه فيه .

إستسلم الأمير للنوم . . وخبا ضوء المشعل واشتد البرد فى الكهف ، ويقى الكلب جالساً عند باب الكهف وقد بسط ذراعيه ووضع رأسه بينهما . .

أستيقظ الأمير فى جوف الليل على صوت بكاء . . ظل جامداً فى فراشه وإستمع . .

كان الدرويش يدعو وسط بكائه .

ـ الهى . . لقد سرت فى طريقك ، وأكلت من خبزك على خوانك ، وعندما يأكل شخص خبز أحد ، يكون له كثير من الحقوق لدى صاحب الخبز . . ولما كنت أنت بحر الجود المالك لكل شىء ، وإذ كنت قد أكلت من خبزك ، فلتصفح عنى . .

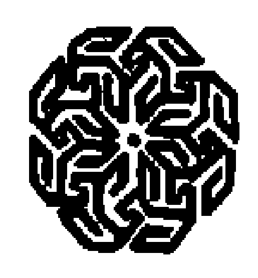
لقد أكلت من خبزك وعصيتك ، أكثرت من الذنوب فى غفلتى ، وبدلاً من أن تعاقب وأنت الملك الجبار ، اراك عوضتنى بمئات الأفانين من رحمتك . . كم يكفينى أن أكون عدماً بالنسبه لك . . وكم يرضينى القول بأننى عبدك . .

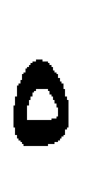
يامن لا ييأس أحد من فضلك . . سأظل دائماً موسوماً بحلقة عبودتيك . . إلهى . . أنت تدرك توسلاتى ، وتطلع على ليالى المتشحة

بالسواد . . لقد جاوزت أحزانى كل حد . . فهبنى محفلاً للمسرة . .
غلب البكاء الدرويش فتوقف عن الدعاء . .

وأحس الأمير باحساس بالغ الغرابة . . أحس أن دعاء الدرويش ودموعه تشبه يداً تهدهد الطفل داخله وتهز مهده لكى ينام . . وحاول الأمير أن يستأنف نومه . . لكن قدميه كانتا تحسان بالبرودة . . وجاء الكلب ونام عند قدمى الأمير ، وجعل من أقدام الأمير وسادة له ، وهكذا أدفأ الكلب أقدام الأمير ولم يعد هناك عائق أمام نومه فنام .

شاهد الأمير فى نومه نفس الحلم الذى رآه قبل ذلك مرات . . إنه يقف أمام شاطىء بحر عريض لا تبدو له نهاية . . وهو يبحث فى الرمال عن شىء لا يدريه ، وبينما هو يقلب فى الرمال إذا بنصل خنجر يلامس رقبته . . فى المرات السابقة كان النصل يغوص فى رقبته دون أن يرى وجه حامله ، أما الآن ، فأن يداً ثالثة تقبض على اليد التى تمسك بالخنجر . . وهو يرى وجه الخائن الذى أراد أن يصرعه . . إنه وزيره . . إستيقظ الأمير من نومه فوجد نفسه فى الكهف وحده وقد أشرقت الشمس . .





خرج الأمير من الكهف وتأمل الشمس . . كانت السحب تتدافع فى طرف السماء ، والهواء يهب نقياً وصافياً ، بينما الشمس تصب أشعتها الدافئة فى المكان . جلس الأمير على الأرض وهو يفكر فى وزيره . . يخونه الوزير إذن . . إستغرق الأمير فترة قصيرة فى التدبير وعقد عزمه على أمر ، ظهر الدرويش والكلب . .

قال الدرويش للأمير ـ كيف كان نومك ؟

قال الأمير : نمت كالصخرة وإستيقظت مثل رغيف من الخبز . . إننى جائع قليلاً . .

ألقى الدرويش إلى الأمير لقمة الخبز التى كانت في يده . .

قال الأمير وهو يأكل :

ـ أريد ورقة وقلماً ورسولاً أبعث به إلى قائد الجند فى المدينة . . إختفى الدرويش وبقى الأمير يقضم الخبز وكان شهياً يبدو وكأنه قد خرج لتوه من النار ، ووقف الكلب أمام الأمير وهز ذيله . .

ألقى الأمير إليه قطعة الخبز فالتقمها الكلب وراح يعالجها وكانت تبدو مستعصية عليه أكثر من العظام . .

إنتهى الكلب من إبتلاع الخبز وجلس أمام الأمير على الأرض وهو يهز ذيله ويلهث ، وتأمل الأمير عيون الكلب ، كانت عملية تكشف عن طيبة بالغة ، وكانت الطيبة التى ترقرق قاع العينين تبدو متناقضة مع أنياب الكلب البارزة ولسانه المتدلى وهو يلهث . . أدفأت الشمس الأمير فتمدد على الأرض وعاد إلى النوم ، إستيقظ على نباح الكلب . . فتح عينيه فرأى الدرويش وهو يصحب معه صبياً فى العاشرة من عمره . .

مد الدرويش يده إلى الأمير بورقة صغيرة وقلم ، كتب الأمير إلى قائد جندة يقول ـ إقبض على الوزير واعرف منه سر الرسالة التى وصلت منذ أيام ، ولتقم أنت على شئون المملكة حتى يكبر إبنى ، وكافىء حامل هذه الرسالة . .

أعطى الأمير للصبى الرسالة ووصف له بيت قائد الجند ، أعطاه خاتماً فى يده وقال له ـ إذا إعترضك أحد فابرز له هذا الخاتم ، وعد إلى بالخاتم ، فاذا سألوك من أين جئت أو أين يختبىء الأمير فقل لهم أن الأمير حذرنى أن أفشى سره . . اذهب . .

إنطلق الصبى ونبح الكلب عليه مرتين ثم عاد يجلس ويعاود اللهاث ويهز ذيله . .

هبط الدرويش والأمير من الجبل ، وإخترقا منطقة المقابر ، وسارا فى طريق الصحراء . . كان الأمير قد سار طويلاً حتى تعبت قدميه ، توقف الأمير وسأل : إلى أين نمضى . .

وقف الدرويش واستدار إليه وقال : هل سألتك فيم تريد الورقة والقلم والرسول ؟ . .

أجابه الأمير بالنفى .

قال الدرويش : لا تسألنى عن شيء حتى أحدثك عنه ، ولا تسأل أحداً عن شيء ألا إذا ألح إليك برغبته فى الإجابة ، ولا تتكلم فى المجلس الذى نتجه إليه الا إذا دُعيت للكلام ، وضع فى قلبك أننا نزور أقطاباً من العارفين ، وهؤلاء صمتهم أكثر من كلامهم . .

قال الأمير : لا تؤاخذنى . . لقد نسيت أنك تكره الكلام . .

قال الدرويش وهو يعاود المسير : الكلام آية من آيات الله ، ولكننا نبتذله بالثرثرة . . . وأنا لا أحب الثرثرة . .

سار الدرويش وتبعه الأمير . . كان الكلب معهما ، وكان يسير حولهما فى دوائر ، فهو فترة عن يمينهما وفترة أخرى عن يسارهما وأحياناً قبلهما وأحياناً يسير خلفهما . .

نسى الأمير وسأل الدرويش : لماذا يسير الكلب حولنا فى دوائر .

قال الدرويش وهو يضحك : إن الأحمق يتصور أنه يحرسنا من الجهات الأربعة . .

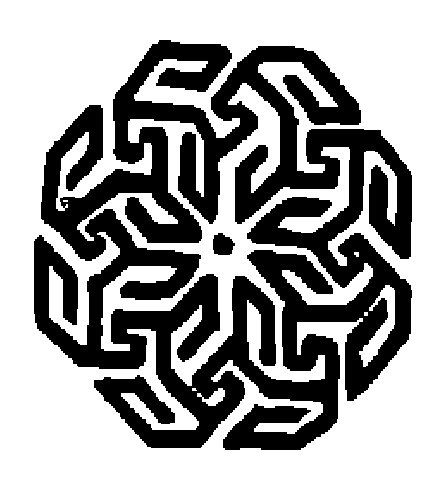
كان السير فى الصحراء ممتعاً فى هذا الصباح . . أن شمساً شتائية واهنة تدفىء الجو دون أن تصل إلى الحرارة اللاهبة ، بينما يمتد اللون الأصفر حتى يلتقى بزرقة السماء . . والهواء بالغ النقاء والسكون ينشر أجنحته على المكان كله .

وتنفس الأمير نفساً عميقاً من صدره وقال : أى صباح طيب . . لم أشهد أبداً مثل هذا الصباح . .

قال الدرويش : سبحان بديع السماوات والأرض ، وخالق النهار والليل .

عاد الدرويش يسير . . حتى بدت فى الأفق قبة خضراء فوق مبنى شاهق البياض . . إقترب الأمير والدرويش من المبنى . . كان الباب نصف مفتوح . . ورغم ذلك قرع الدرويش يداً حديدية على الباب . وجاءه صوت يقول من الداخل ـ مرحبا بالأمير والدرويش . .

تصاعدت دهشة الأمير وقال فى نفسه . . كيف يعرفون أننى قادم . .



٦

فى قصر الأمير . . فى قاعة الدرس المخصصة لابن الأمير ، يجلس المعلم وأمامه الأمير الصغير . .

كان الأمير الصغير لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، وكان ذهنه قد ثقل من الرياضيات التى يعلمها له الإستاذ فسرح قليلاً . .

سأل المعلم : فيم سرحت . .

قال الأمير الصغير : فى لا شىء . .

قال المعلم : كن رجلاً وحدثنى بصدق . .

قال الأمير الصغير : ليس هذا إعتراضاً ولكنه تساؤل ، وقديماً سألت الملائكة رب العزة حين لم تفهم حكمة خلق الانسان . .

قال المعلم : لا تبدأ بالالتفاف حولى . . قل ما فى عقلك دون تردد . . أفصح عن نفسك . .

قال الأمير الصغير : هل لهذا العلم الذى ندرسه فائدة . . إننى أعشق التاريخ والجغرافيا وأحلم بقيادة الجيش . . هل لعلم الرياضة من فائدة فى الحرب .

قال المعلم : يدرسه نظراؤك فى المدارس فلا تتفلسف ، واعلم أن القائد الجاهل بأى علم هو قائد مهزوم لأن الجهل هزيمة . . إين كنا ؟

قال الأمير الصغير مغلوباً على أمره : كنت تسألنى عن نظرية فيثاغورس .

قال المعلم : حدثنى عنها .

فى هذه اللحظة . . طرق الباب ضابط الحرس ، ودخل إلى الغرفة حيث قال للمعلم : معذرة لاقتحام القاعة ، ولكننا نستأذنك أن يرى الأمير الصغير قائد الجند لامر يتصل بوالده . .

وهكذا نهض الأمير الصغير وهو يخفى سعادته لإنقاذه بهذه الصورة .

قال قائد الجند للأمير الصغير بعد أن أخل مكتبه : يا صاحب السمو ، وصل خطاب من والدك . . وهو يأمر فيه بالقبض على الوزير وقد فعلنا ، ولقد أحببت أن أخبرك حتى تكون أول من يعلم . .

سأل الأمير الصغير : أين أبى ؟ . .

قال قائد الجند : خرج فى رحلة صيد مع الدراويش هذه المرة . .

قال الأمير الصغير : لماذا لم يعهد إلى بادارة المملكة حتى يعود . .

قال قائد الجند : الأمير لم يزل صغيراً ، وقد عهد والدك إلىّ بهذه المهمة ، ولكننى لن أمضى أمراً إلا بعد إطلاعك عليه . .

قال الأمير وصدره يتسع من السعادة : هل تعرف شيئاً عن نظرية فيثاغورس ؟

قال القائد : لا أظن . .

قال الأمير الصغير : هذا أفضل . . وهو لا يقدح فى عظمتك كقائد .

إنصرف إبن الأمير من مكتب القائد عائداً إلى قاعة الدراسة . . كان ثملا يمتلىء بأحساس لم يجربه من قبل . . إحساس ممتد بالحرية والنفوذ والسلطان . . لا ينكر بينه وبين نفسه أنه يتطلع إلى الحكم ، وهو يدرك أن أباه لا يحكم بالفعل ، ومن ثم يطفو السؤال دائما فى عقله ـ لماذا لا يدعنى أحكم بدلاً منه . . إننى أبلغ السادسةعشرة قريباً ، والمملكة فى حاجة إلى شباب يجدد شبابها . . لقد مضت سنوات بغير حرب أو جهاد . . أى تقاعس هذا

راحت أفكار الأمير الصغير تدوى كالرياح فى رأسه حتى دخل قاعة الدراسة . . كان معلمه قد إستسلم للغفو وهو فى مكانه ، تحرك بغير أن يحدث صوتاً وجلس فى مكانه ، وإستسلم تماما لأحلام السلطان الجديد الذى بات قريباً من يده . .

فتح المعلم عينيه فوجد تلميذه فى مكانه ، قال : حدثنى عن فيثاغورس .

قال الأمير الصغير متجاهلاً سؤال المعلم : هل تكتم سراً أيها المعلم الكريم . .

تساءل المعلم : أى سر . . ؟

قال الأمير الصغير : لقد خرج أبى وعهد إلىّ بقيادة المملكة . .

أدرك الأستاذ أن الأمير يصرفه ، وينهى مرحلة الدراسة برمتها ، وقف المعلم وقال ـ كما تشاء يا صاحب السمو . .

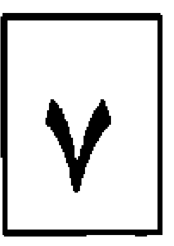
قال الأمير الصغير لأستاذه : إجلس أيها الأستاذ الفاضل وحدثنى أنت عن فيثاغورس . . ما هو رأيك الحقيقى فيه . . هل تعرف رأيى فيه . . لقد كان حماراً يونانياً صرف حياته منكباً على المثلثات والمربعات والدوائر ، تاركاً مباهج الحياة تمرق من أمام عينيه وهو لا يعبأ بها .

ابتسم المعلم وقال ساخراً : هذه فكرة لا أحسب أن فيثاغورس قد إنتبه إليها أو خطرت على باله . .

قال الأمير الصغير : لم تخطر الفكرة على باله لأنه حمار . . إن الافكار لا تخطر فى بال الحمير . . ألا ترى ذلك

قال المعلم مستسلماً : صدقت يا صاحب السمو . . لقد كان فيثاغورس حماراً .

قال الأمير وهو ينهض ويسير فى الغرفة ـ إننى سأتزوج أيها المعلم الكريم ، وسأنجب أولاداً وأسلمهم إليك لتعلمهم هراء فيثاغورس كما تشاء ، أما أنا فإن أمامى أحلاماً عريضة لا أعرف كيف أحققها بعد ، ولكننى سوف ألجأ إليك كلما إحتجت للمشورة .



تكية المولوية .. دخل الأمير القاعة ودخل خلفه الدرويش .. نهض جمع الدراويش حين دخل الأمير وإنحنوا له يحيونه ، إندهش الأمير من حرارة التحية .. وقاده صديقه الدرويش إلى مجلس الصدارة فأجلسه ومضى عنه وهو يقول : لم أرهم يعاملون أحداً هكذا .. جلس الدراويش بعد أن جلس الأمير ..

قال شيخهم وكان يجلس فى مقدمة القاعة : تأخر علينا الأمير ! لقد كنا نتوق لهذا اللقاء منذ سنوات ..

لم يعرف الأمير بماذا يجيب ، وتذكر نصيحة الدرويش له أن يصمت إذا كان لا يعرف ماذا يقول فصمت ..

عاد شيخ الدراويش يقول : أى شيء يحب الأمير أن يشرب .. كان الأمير يحس بالعطش بعد رحلته الطويلة فقال ـ لا بأس بكأس من الماء..

إبتسم شيخ الدراويش وقال : نحن لا نتحدث عن الماء .. إن لدينا خموراً سكرنا بها من قبل أن تخلق الكرم .. هل تحب أن نبدأ بالنبيذ الأبيض أم النبيذ الأحمر ..

تعاظمت دهشة الأمير بينه وبين نفسه ، لم يفهم كيف يكون هؤلاء دراويش ويشربون الخمر ، وأخفى الأمير مشاعره وقال :

ـ كل شيء عندى سواء .. لنبدأ بالنبيذ الأبيض ..

أشار شيخ الدراويش إلى درويش فى نهاية القاعة ، مد الدرويش يده وراءه وسحب آلة موسيقية ومضى يصلح أوتارها وسط صمت سابغ .. ثم راح يشدو بقصيدة من الشعر الفارسى ..

قال الدرويش المغنى : هذه بعض كلمات مولانا جلال الدين الرومى فى المحبة الإلهية ..

إن الروح التى لا ترفع شعار الحب الحقيقى .. هى روح غير كائنة .. إذ ليس وجودها سوى عار .. كن ثملا بالحب .. فان الوجود كله محبة .. وبغير ذوبان فى الحب فلا سبيل إلى الحبيب .. يسألون : ما الحب ؟ قل هو ترك الإرادة .. ومن لم يتخلص من إرادته فلا أرادة له ..

ان المحب ملك .. والدنيا تراب تحت قدميه .. والملك لا يلتفت قط إلى ما هو ملقى تحت قدميه ..

كان الدرويش يغنى بالفارسية ، بصوت مؤثر خاشع ..

فهم الأمير أن الجلسة جلسة للسماع ، وأن الخمور التى أشار إليها شيخ الدراويش كانت قصائد حب إلهى ..

مضى الدرويش المغنى يقول :

لا ترتعد فوق حصان الجسد ..

ومر مسرعا على قدميك . .

فإن الله يهب جناحين لمن تخلى عن حصان الجسد . .

مس بيت الشعر الأخير وتراً فى نفس الأمير ، ومضى الدرويش يكرر الكلمات ويتغنى بها بينما كانت الآلة الموسيقية فى يده تلون المكان كله بلون أثيرى شفاف ، وكان هذا يصنع فى نفس الأمير بهجة عميقة راحت تتخلق على مهل ، وهى بهجة لم يعرفها الأمير من قبل ، دخل القاعة درويش يحمل مبخرة وعليها عدة قطع من خشب العود ، وكان يقف أمام كل درويش فيمد يديه ويضم العطر الصاعد من النار إلى صدره . . حدق الأمير فى النار وملأ رئتيه من عطر الخشب الذى كان يحترق ويترك مادة صمغية بعد احتراقه .

قال الدرويش حامل المدفأة : حال المؤمن مع الحريق كحال خشب العود ، يعطر الجو إذا إحترق . توقف الدرويش المغنى عن غنائه . . ونهض يقدم للأمير قميصاً قال وهو يقدمه

ـ هذا قميص سلطان العاشقين الأكبر . .

بعد ذلك أومأ شيخ الدراويش لدرويشين آخر فأخرج من عباءته ناياً ومضى ينفخ فيه وهو يلعب بأصابعه على فتحاته . . كان الصوت الخارج من الناى حزيناً ومفعماً بالمشاعر . . وكان فى حزنه لون من نبل العزة ، وخضوع التعبد ، وكانا الإحساسان يهومان فى المكان والدرويش ينشد قصيدته . .

قال الدرويش : حل شهر الصوم فى عهد عمر ، فهرع جماعة إلى قمة التل ليتفاءلوا برؤية الهلال الطاهر . .

قال واحد منهم : يا عمر . . هاك الهلال . . وحين لم ير عمر الهلال في السماء قال : إن هذا الهلال قد ظهر في خيالك أولا ، فأنا أقدر منك على رؤية الأفلاك ، فكيف لا أرى الهلال الطاهر ، بلل يدك وامسح بها على حاجبك ثم إنظر بعد ذلك إلى الهلال . .

حين فعل الرجل ذلك لم ير الهلال ، قال : أيها الامير ، ليس هناك هلال ، لقداختفى .

قال عمر : نعم . . إن شعرة من حاجبك قد تقوست ، فوجهت إليك سهماً من الظن ، فحينما إعوجت شعرة سدت أمامه الطريق ، فراح يتشدق بالقول مدعياً رؤية الهلال . . فإذا كانت شعرة معوجة تصبح حجاباً للفلك . فكيف يكون الحال لو إعوجت كل أعضائك .

أدرك الأمير أن الدراويش يوجهون إليه رسالة من خلال الشعر الذى ينشدونه له ، أيضا أدرك أنهم يحتفلون به ويكرمونه على شيء لم يكتشفه بعد . .

وتعاقب تقديم كؤوس الأناشيد وتعاقب معها تقديم الهدايا ، قدم إليه الدرويش الثانى عباءة من صوف الجمال الخشن الذى يغنى عن خيمة تدفىء الجسد في ليالى الصحراء الشتائية القاسية . . وأنشد الدرويش الثالث وهو يعزف على الطنبور قصة المجنون وليلى . . وتحولات المجنون يوماً بعد يوم .

قال الدرويش : إن حبه لا يحتمل وجود أغيار في القلب . .

لقدسألوا المجنون عن إسمه فقال : ليلى . . قالها بغير أن يفكر .

سألوا المجنون : أين ذهبت ليلى وأين إختفت .. عندئذ شق المجنون صدره وأشار إلى قلبه المحترق وقال .. هنا إختفت ..

ولكن ليلى كائن إنسانى .. وكل كائن إنسانى سيشرب يوماً من كأس الموت .. وهكذا ماتت ليلى ..

قالوا للمجنون : لقد ماتت ليلى . ولكن المجنون قال « لا .. ليلى لم تمت ، إنها هنا فى قلبى .. أنا ليلى ..

وجاء المجنون يوما يزور ديار ليلى .. وقف أمام بيتها ورفع رأسه للسماء وحدق فى السحب .. قالوا له : لا تنظر إلى السماء .. أنظر إلى حيطان ليلى ، لعل صورتها تتراءى لك .. ولكن المجنون أجاب ..

إنهم يسألون المجنون .. هل مازالت ليلى هى نفسها .. رغم أنهم يذكرون إسمها ، لقد ولدت فى قلب المجنون نيران حب جديد .. ذهبت ليلى القديمة وجاء ما كنت أبحث عنه من قرون .. إن من يرى الحق .. لا ينظر بعد إلى ليلى .. لقد ذهب المجنون إلى الكعبة .. وفى الطواف كان يذكر أسم ليلى .. ولكنه وجد الحق .. ذهب عشق ليلى وجاء عشق الحق ..

ومضى الدرويش ينشد القصة .. وهى قصة تنتهى بقول المجنون مخاطبا ليلى :

ـ اذهبى بعيداً أيتها الصورة .. ولا تقفى فى طريقى إلى البارىء المصور . إنتهى الدرويش ونهض بهديته إلى الأمير .. قدم إليه جلباباً من الصوف الثمين الناعم .. ولاحظ الأمير أن هداياه رغم تعددها

وإختلافها إلا أنها أغفلت شيئاً كان الأمير محتاجاً إليه . . لقد قدموا له الملابس والعطور والمسك ولكن أحدا لم يقدم إليه نعلاً . . وكان الأمير قد بدأ يعاني من سيره بغير نعل . .

حين إنتهى الترحيب بالأمير وتقديم الهدايا إليه ، وقف شيخ الدراويش وقال مخاطباً الأمير : لقد انتظرناك طويلاً أيها الأمير . . ونحن نعرف أخبارك وننتظرك ، وليس الدرويش الذى مر عليك فى القصر سوى رسول منا يذكرك بموعدك الذى نسيته ، ونحن نلاحظ إنك خرجت من قصرك وقدمت علينا حافياً . . وهذه مرتبة لم يبلغها أحدنا بعد ، لقد قال الحق لنبيه وكليمه موسى عليه السلام - إخلع نعليك . . إن أحداً لا يعلو إلا إذا خلع نعليه . .

قال الأمير بصدق وبراءة : لم يكن هذا فى ذهنى . . لقد نسيت نعل وأنا أخرج من القصر . . هذا كل ما حدث .

إبتسم الدرويش الأشيب غير مصدق ، وقال : كل سادتنا يحجبون أسرارهم عنا ، بينما نكشف أسرارنا نحن لهم ، تفضل بالحديث أيها البحر ودعنا ننهل من علمك .

ضحك الأمير وقال : علمى . . تنهلون من علمى . . لو كنت أعلم ما جئت ، لقد جئت هنا لأتعلم ، إن فى ذهنى عديداً من الأسئلة ، وأنا لا أعرف شيئاً ، ولست واثقاً من شىء . . سوى أننى سأموت ، ولقد عشت بحواسى الخمس حتى ذبلت روحى وكادت تنطفىء ، ولولا هذا الدرويش لغرقت روحى فى القاع الطينى لمستنقع السأم والملالة . .

إبتسم شيخ الدراويش وقال : مولانا عظيم التواضع ، ولعل نفسه اللوامة هى التى تحدث إلينا . . هل يهجر الأمير مقام الانس إلى مقام الخوف إستبشاراً بقوله تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ . .

قال الأمير وهو يزداد إحساساً بالحرج . . لم يدر هذا فى خاطرى أيضا . . لقد جئت أسأل . . سمعت من الأجداد وأريد أن أعرف . .

قال شيخ الدراويش : آه . . جاء سادتنا لامتحاننا اذن . . نسأل الله المدد . .

قال الأمير : أنت لا تفهم ما أقوله أيها الدرويش الطيب . . لقد تأملت الدنيا فوجدتها تمتلىء بالآلام والعبث ، وساءلت نفسى متحيراً . . لماذا خلق الله الخلق . . ولماذاخلق الله الشر . . جئت أسأل كيف تكون التوبة ، وجئت أسأل عن معنى التقوى . . إن الكلمة تتردد كثيراً فى القرآن الكريم ، وأنا لا أفهم معناها . . وقد سألت عنها المفتى يوماً فظل يتحدث عنها حتى أدركنى النوم ، وخجلت أن أسأله عنها حين إستيقظت . . هذا ما جئت لمعرفته أيها السادة .

تهامس الدراويش فيما بينهم ، وقالوا للأمير : سوف نختار لك أصغر الدراويش سناً للأجابة على أسئلتك ، وهؤلاء هم السالكون حديثاً فى الطريق . . فإذا رأيت حال السالكين عرفت مقام الواصلين .

قال الأمير : أنتم تصرون على أنه إمتحان . فلا بأس بما ترونه . . أحس الأمير أن الجهل يمتحن العلم فابتسم ساخراً ، مازالت الدنيا عالقة بأطراف ثيابه ومازالت تطارده بأقانينها المعكوسة .

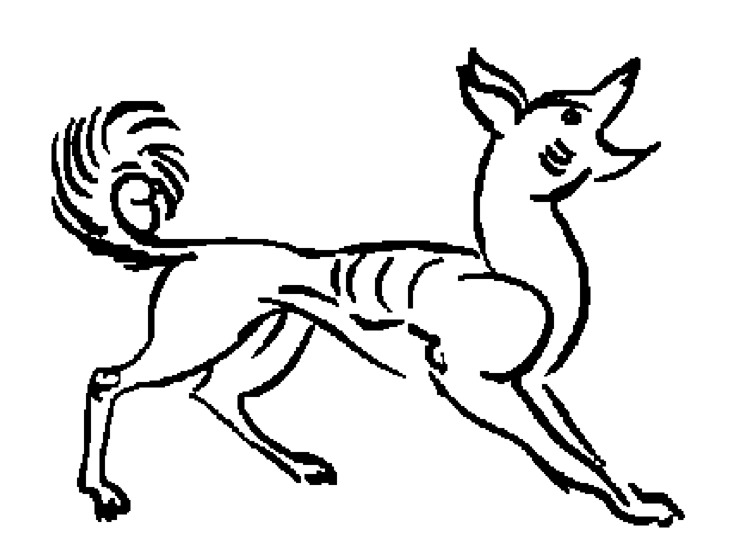
حضر الدراويش الثلاثة وجلسوا أمام الأمير . .

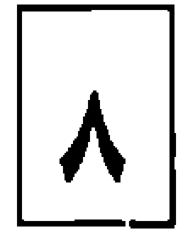
قال أولهم : سأل ضيفنا الأميرلماذا خلق الله الخلق . . والجواب هو الحب . أن الله خلق الخلق ليحسن إليهم ، إن الحياة نعمة حتى لو حاصرتها آلاف العذابات ، جاء فى الحديث القدسى قوله سبحانه : كان الإحسان قصدى من الخلق . وجاء فى الحديث القدسى قوله تعالى : كنت كنزاً مخفياً ، فأردت أن يفيض عطائى فخلقت الخلق . . فبى عرفونى . .

أيضا قال الله تعالى فى محكم كتابه ﴿ وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ أن عبادة العابدين لا تزيد شيئاً فى ملكه ، وكفر الكافرين لا ينقص شيئاً فى ملكوته . . العبادة إذن مجد وهبه الله للعابدين ، وهى عطاء وإحسان يمن الله به على عباده . . ولذلك قال سادتنا العارفون بالله : عرفنا الله قبل أن نعرفه ، وأعطانا قبل أن نسأله ، وخلقنا وهو غير محتاج إلينا . . الا يعنى ذلك أنه أحبنا قبل أن نحبه ؟

إنتهى الدرويش الأول وتكلم الثانى فقال : سأل ضيفنا الأمير لماذا خلق الله الشر ، لقد خلق الله الخير وخلق الخلائق من الإنس والجن ، وجعل لهم إرادة حرة تملك أن تختار ، من هنا نبع الشر ، والخير والشر نهار الإرادة وليلها ، وهما لازمان للإبتلاء ويحققان جوهره ، قال الحق ﴿الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ .

تكلم الدرويش الثالث فى التوبة فقال أنها إنتقال من حال إلى مقام ، ؛نقال من حال ظلم النفس والآخرين إلى مقام العدل مع النفس ورد لمظالم وهذه هى التوبة عند العوام ، أما عند الخواص فهى إخراج الأغيار السوى من القلب حتى يتفرغ القلب لله وحده ، والتوبة غصن والتقوى ثمرة ، والتقوى تبدأ من إتقاء ما يغضب الحق عز وعلا ، وتنتهى برؤية الحق وحده والفناء عمن سواه .





آوى الأمير إلى غرفته فى التكية بعد العشاء . . كان مرهقاً بجسده ، ولكن روحه كانت تنطلق وسط مروج خضراء لا نهاية لها ، أما عقله فكان يتأمل أجابات الدراويش على أسئلته . .

وقعت عينه على الهدايا التى أعطاها الدراويش له ، هذه هدايا يخجل هو أن يقدمها لخدمه ، ولكنها من الدراويش كانت أقصى جهد فى طاقتهم وكانت عبئاً على دراهمهم الضعيفة القليلة . .

كان الأمير يتقل إنتقالاً بطيئاً من خضوعه للحواس إلى وعيه بالروح . . وبدا هذا الإدراك ميلاداً جديداً له . . وقفزت إلى ذهن الأمير عبارة قالها الدرويش عن التوبة ، ووجوب رد المظالم . . لقدإبتسم الدرويش وهو يقول عبارته إبتسامة مذنبة ، كان واضحاً أن الدرويش يقصده . . وتساءل الأمير بينه وبين نفسه . . كيف يعرف المرء أنه ظلم أحداً من الناس إذا كانت بينه وبين الناس جدران وأبراج محصنة . . وكيف يرد المرء مظالم لا يعرف أين وقعت ولا كيف ؟ . . لقد كان الناس بالنسبة للأمير أرقاماً و اوراقاً وشكاوى تقدم إليه . . لم يكن الناس بالنسبة إليه كائنات لها وجودها الخاص ، إنما كانوا موضوعات تريد منه أو يريد

منها، إن كل شيء يرتبط بشخصه ، ولم يكن ينظر فى علاقاته بأحد لغير ذاته ، إن إرادة الأخرين تستسلم لإرادته دائماً ، فإذا أبت خرج الأمير بجيشه وحطم هذه الإرادات العاصية . .

سمع الأمير طرقاً خفيفاً على الباب ، ثم فتح الباب ودخل الدرويش ووراءه الكلب . . سعد الأمير برؤيتهما ورحب بهما وهو يقول :

ـ لقد منحنى الدراويش غرفة خاصة ، بينما ينام الجميع فى قاعة واحدة ، لقد إحتفلوا بى إحتفالا بالغ الكرم .

قال الدرويش : عذرهم قائم ، وهم لا ينظرون إليك كما أنت الآن ، أنما يرونك بعد سنوات ، وإحتفالهم بك هو إحتفال بما تصير إليه بعد عشر سنوات . . فكر الأمير فيما قاله الدرويش وصمت محنقاً . . عاد الدرويش يقول : جئت أخبرك أننى قد عزمت على الرحيل ، لقد انتهى واجبى معك ، وسوف أتركك وأترك لك الكلب الذى أفسدته بالطعام الجيد والحمام المعطر ، تستطيع أن تبقى هنا كما تشاء أو تخرج لتضرب فى الأرض كما تشاء . . أستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه . . السلام عليكم

قالها الدرويش وخرج . . وبقى الكلب يهز ذيله سروراً برؤية الأمير.

مكث الأمير فى ضيافة الدراويش شهوراً متصلة ، أطلق لحيته وصنع له أحد الدراويش نعلاً ولكنهم ظلوا يتحدثون عنه بإعتبار أنه الأمير الحاف ، قاده الدراويش إلى مكتبة التكية ونصحوه أن يقرأ ، فلما إنتهى

ن قراءته قالوا له : أحرق كل ما قرأت واعتمد على قلبك . .

ذهب إلى شيخه وسأل :

ـ لماذا نصحتنى بالقراءة فلما قرأت أمرتنى أن أنسى ما قرأته .

قال شيخه : العقل دابة نركبها لتوصلنا إلى السلطان ، ولكننا لا ندخل بها عليه . .

فهم الأمير من شيخه أن العقل وسيلة تعريف تقود إلى الله ، ولكن الوقوف فى حضرته يحتاج إلى القلب لا العقل . . إذ يغيب العقل من فرط هيبة الحق وجلاله .

لقد صدر الأمر إلى موسى أن ينظر إلى الجبل ، فلما نظر صعق . . كانت للدراويش لغة ملغزة ، انهم يتكلمون أمام الغرباء فيفهمون فيما بينهم ما يقال ولا يفهمهم الغرباء . .

قرأ الأمير كتاب المثنوى المعنوى لشاعر الصوفية الأكبر جلال الدين الرومى ، واستولت أفكار الكتاب على إعجابه ، وحدث شيخه عما فى نفسه فقال الشيخ : فى حياتك شيء يشبه حياة الرومى ، كان أستاذاً للفقه ، وظل يدرسه للتلاميذ حتى سن الأربعين ، وذات يوم دخل درويش يبيع الحلوى إلى المسجد ، وقف الرجل عند رأس الرومى ودار بينهما الحوار ، بعدها خرج الرومى وراء بائع الحلوى ولم يعد لتدريس الفقه . . تحول من فقيه إلى عاشق ، وكتب كل ما قرأته بعد هذا التحول . . أن حالك يشبه حاله ، لقد خرجت حافياً وراء درويش ، ولم تستكبر وأنت أمير أن تغسل كلب الدر... ن وتحميه . .

قال الأمير لشيخه : كان غسيل الكلب عبثا من جانبي لا رحمة . .

قال الشيخ : لا يعرف المرء نواياه الحقيقية الا بعد زمن . .

قال الأمير : نفسي تحدثني بالخروج . .

قال الشيخ : أخرج كما تحب ، أنت تعبر الآن وادى الطلب . . وهو واد يمتلىء بالمجاهدات ويحتاج إلى التخلى عن العلائق واليأس مما فى أيدى الخلائق ، قبل كل شىء . . لا تنس واجبك فى رد المظالم . . لقد ظلمت كثيراً من الخلق ، واعياً كنت أو غير مدرك . . وها قد حان أوان الحساب .

خرج الأمير من التكية عائداً إلى كهفه فى الجبل . . كانت كلمات شيخه تدوى فى قلبه .

«تطهر من العلائق مع الخلق ، وايأس مما فى أيدى الخلائق ، وكن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل . . إن الدنيا جسر يؤدى إلى الآخرة ، هل رأيت أحداً يبنى داره فوق جسر» . .

وصل الأمير إلى المدينة ودخل إلى السوق ، شاهد واحداً من ضباطه المقربين وهو يشترى شيئًا ، خشى أن يعرفه الضابط فأشاح بوجهه ، ولكن الضابط مر جواره دون أن يرتاب فيه أو يتعرف عليه ، إطمأن الأمير إلى أن أحداً لن يعرفه بعد أن أطلق لحيته وإرتدى ملابس الدراويش ولوحت الشمس جلده وأكسبته هذه السمرة الخفيفة . . كان الكلب يتبعه أو يتقدم عنه ولكنه لم يكن يفارقه ، وكان الأمير قد هبط إلى السوق لأخرين ، أولهما أن يبيع سيفه ، والثانى أن يعرف كيف يعيش

الناس ومم يشكون وأى إحساس يخفونه فى أنفسهم . . تمهيداً لرد المظالم التى ارتكبها الأمير دون وعى . .

إشتبه فيه تاجر السلاح حين عرض عليه أن يشترى السيف .

قال له التاجر : كأننى أعرف هذا السيف ، من أين جئت بهذا السيف!

قال الأمير : أهداه إلى صاحبه . .

سأله التاجر : هل تعرف من يكون صاحبه !

سكت الأمير وخفض التاجر صوته وهو يقول : هذا سيف الأمير . هل أهداه إليك . .

أومأ الأمير برأسه فعاد التاجر يقول : بخبث لعل أحداً سرقه من الأمير وإدعى أنه صاحبه . . هذا سيف قد يجر علينا متاعب عديده . .

لم يفهم الأمير قصدالتاجر فسأله : ماذا تعنى !

قال التاجر : أعنى أنه لا يباع بثمنه ، أنما يباع كشىء مسروق . .

قال الأمير محاولا إنهاء الحديث : كم تدفع فيه ؟

قال التاجر : عشرة دنانير . .

قال الأمير : عشرة دنانير لسيف قبضته من الذهب . .

قال التاجر : عشرة دنانير لسيف مسروق . .

مد الأمير يده بالسيف وتناول بيده الأخرى الدنانير ومضى فى طريقه نحو الكهف .. وظل ستة أشهر يزور السوق كل يوم وإنكشفت له حقيقة السوق عن غابة يأكل فيها القوى الضعيف، وينزل فيها الظلم من أعلى إلى أسفل .. من الأغنياء إلى الفقراء ، ومن ذوى النفوذ إلى البائسين ، ومن قصره إلى سائر أنحاء المملكة .. وجلس الأمير وكتب خطابين إلى قائد الجند .. بعث خطاباً منهما وأبقى الثانى تحت يده ..



٩

٩

قصر الأمير . . دخل قائد الجند على الأمير الصغير . . أومأ بعينه أنه يريد إخلاء الغرفة فأخلاها الأمير .

قال القائد : وصلت رسالة ثانية من والدك الأمير . . وقد أبقيتها مغلقة لتراها بنفسك . .

شحب وجه الأمير الصغير ومد يده لقائد الجند ، فض الرسالة وقرأها . . هذا خط أبيه ولكن أفكار الرسالة لا تشبه أفكار أبيه . . أنه يتحدث عن رد مظالم ، أية مظالم يعنيها ، ثم إنه يتحدث عن إقطاع الفلاحين أرضاً مملوكة للأمير ، ثم هاهو يتحدث عن تنزيل ضخم فى الضرائب والمكوس . . من أين تنفق الدولة اذا إستجابت لهذا كله . . لقد خرج الأمير منذ أكثر من عام ، أين يختبىء ؟ ولماذا انقطعت أخباره؟ وكيف يعيش ؟

ترددت الأسئلة فى عقل الأمير الصغير وقال فى نفسه : لقد جن أبى، وخرج من عقله ، هل يعود إذا لم ننفذ أوامره ؟ كان هذا هو السؤال الذى يختفى فى عمق بعيد مظلم فى نفس الأمير الصغير . .

وكان هذا السؤال هو الذى يحدد إجابته على الخطاب . . رفع نظره من السطور وقال لقائد الجند وهو يرمى إليه الرساله :

ـ إقرأ وقل لى ماذا ترى

قرأ قائد الجند رساله الأمير وقال ـ أيها الأمير . . يبدو أن عقل الوالد لم يعد مملوكاً له . .

سأله الأمير الصغير : ماذا تعنى ؟

قال القائد : لقد خضع الأمير لأفكار الدراويش ، ولعله سجين لديهم ويملون عليه هذه الرسائل . . إن أحداً لا يدري والأمر يزداد غموضاً كل يوم . . وليس هناك غير خيط رفيع امسكنا بطرفه ويوشك الخيط أن يقودنا إلى مكان الأمير .

سأل الأمير الصغير مندهشاً : أى خيط ؟

قال قائد الجند : لقد عثرنا على سيف الأمير عند تاجر للسلاح ، وهو يقسم أن درويشاً باعه له . . هذا يعنى أن الأمير سجين عند الدراويش . .

قال الأمير الصغير وقد وصل إلى قرار : دعنا ننفذ ما طلبه الأمير . . بخطوات بطيئة ، أو دعنا نبدو وكأننا قد امتثلنا لأوامر الأمير . . وفى نفس الوقت ، أطلق عيونك فى المملكة كلها وجئنى بمكانه . . صرف الأمير الصغير قائد الجيش ومضى يسير فى غرفته وهو يتمتم : لقد جن أبى بغير شك . .

١٠

عاش الأمير فى كهفه بالجبل ، إستغرق زمناً حتى عرف كيف يصلى صلاة مودع ، وطويت له المسافات فمضى يعبر بعقله أوديةالمعرفة والإدراك ، وتراوحت على قلبه أحوال من الصفاء والقرب ، وقادته الأحوال إلى مقامات أقامه الحق فيها . فى البداية كان الخوف حالا وجد نفسه محكوماً داخله ، تراءت له فكرة الموت مثل سيف نارى خفى يختبىء وراء ظهره ، ولا يعرف مخلوق متى يهوى نصلة بالضربة القاضية ، وتصور نفسه واقفاً يوم القيامة أمام الله ، غارقاً فى ذنوبة التى تشده إلى الجحيم ، غير قادر على تفسير حريته مع الله وعبوديته لنفسه وهواه . .

ثم إنتقل من حال الخوف إلى حال الرجاء ، قال لنفسه أن الله تعالى لم يخلقه ليعذبه ، واختلجت روحه باضطراب هائل ، أحس بالحياء من الله ، وكبرت ذنوبه فى عينيه حتى إبيضت عيناه من الحزن مثل يعقوب ولكن شيخه نبهه إلى أن الاستغراق فى الحزن أو الخوف يشل الإرادة .

قال له الشيخ : إطرح ذنبك على عفوه ولا تعد إلى التفكير فيه . . إذهب وراجع ما قاله « النفّرى » فى موقف الصفح الجميل وهو يستمع إلى لسان من ألسنة رحمة الحق . . واستعاد الأمير ما قرأه قبل ذلك .

أوقفنى فى الصفح الجميل وقال لى : لا ترجع إلى ذكر الذنب فتذنب بذكر الرجوع . .

وقال لى : ذكر الذنب يقودك إلى الوجد به ، والوجد به يقودك إلى العودة إليه . .

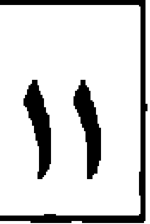
وقال لى : إجعل ذنبك تحت قدمك . . واجعل حسنتك تحت ذنبك

ومضى الأمير يجاهد وهو يصعد نحوالقمة . . كان الطريق يزداد وعورة وصعوبة كلما ارتفع . . كانت غايته هى الوقوف فى حضرة الحق ، وكان قلبه قد ذاق بعضاً من التجليات وكان أكثر ما يخشاه أن يهلك فى الطريق قبل أن يصل إلى مراده ، كان القبض والهيبة يغلبان عليه بدلا من البسط والأنس ، ولكنه لم يكن يقيم طويلاً فى الأحوال التى تتعاقب عليه ، وانبعث فى نفسه حياء من الرسول ومضى يفكر فى شفاعته وتذكر ماحكاه « العطار » عن شفاعة الرسول من أجل أمته .

قال الرسول للخالق : لتكل إلىّ أمر أمتى ، حتى لا يطلّع أحد على ذنوبها . .

قال له الحق تبارك وتعالى : يا صدر الكبار ، إن تطلّع على تلك الذنوب الكبار ، فلن تستطيع تحملها ، وتظل بعد ذلك حائراً ويعتريك الخجل ، وأن تبحث عن طاهر ذيل واحد ، فما أكثر ما تجد من خطائين فى هذه الأمة ، ولن تستطيع تحمل كل هذه الذنوب ، وان كنت ترغب فى ألا يعلم أحد قط شيئاً عن ذنوب أمتك ، فإننى ياعالى المقام أرغب فى ألا تعرف أنت كذلك ذنوب أمتك .

وأدرك الأمير أن الله تعالى يغار على عباده أكثر مما يغار الرسول على أمته .



مرت الأيام مثل موجات متلاحقه متعاقبة، كل يوم منها يمحو اليوم الذى قبله ، وإنتقل الأمير من حال الخوف إلى الرجاء ، ومن حال الرضا إلى الحب ، ومن حال الشوق إلى الأنس ، ولكنه لم يصل بعد إلى حال شهود الحق والفناء عن نفسه . . أيضاً أقام الأمير فى مقام التوبة ورحل منه إلى مقام التقوى والورع والزهد ، ولكنه لم يبلغ بعد مقام « الوقفة » أو مقام الشهود . .

كان ينزل إلى الأسواق وينظف الدكاكين مقابل دريهمات قليلة كانت تكفيه ، ورثت ملابسه فبدأ يرقعها . . وأدرك تجار السوق زهده فاستغلوه، وكانوا يقدمون إليه الطعام بدلاً من النقود . . وكانوا يسمونه فيما بينهم بالأحمق ، فهو لا يعرف قدر العمل ولا قيمة النقود . .

وتغيرت الدنيا فى عينى الأمير ، صار يراها لا شىء ، إن بحارها الواسعة بركة صغيرة ، أما أفلاكها ونجومها فلا تزيد عن ورقة صفراء تسقط من شجرة . . بدت له العوالم جميعاً مثل ذرة رمل لا قيمة لها ، ولكنها تنطوى على سر حاول جاهداً أن يبلغه . .

كان يرقب صراع الفانين من أهل الأسواق على حطام الدنيا ،

ويرى تكالبهم على المال ، ويقارن بين سلوك البشر وسلوك كلبه فيزداد تحيراً ودهشة . لقد كان يطعم كلبه أحياناً ، ولا يجد ما يطعمه أحياناً أخرى ، ورغم هذا التقصير فى حق الكلب ، ظل الكلب يتبعه وظل على ولائه ووفائه ، وتذكر الأمير أن قلوب الناس كانت تتغير وتتقلب بين الحب والكراهية حسب عطاياه ، أيام كان أميراً . . وساءل نفسه

ـ أيكون قلب الكلب معجزة من معجزات الحق . . نحن أمام قلب فطر على الوفاء دون أن يتعلق الوفاء بالعطاء . .

وتذكر الأمير ما كان من أمر الشبلى والجنيد . .

سأل الجنيد يوماً تلميذه الشبلى : كيف الحال عندكم ؟

قال الشبلى : الحمد لله . . إذا أعطانا الله شكرنا وإذا منعنا صبرنا . .

قال الجنيد وهو يبتسم : هذا حال الكلاب عندنا فى بغداد . . اذا أعطيت شكرت وإذا مُنعت صبرت . . المفروض أن يكون حالكم خيراً من حال الكلاب . .

سأل الشبلى : كيف يا مولاى ؟

قال الجنيد : إذا أعطيتم شيئًا أن تؤثروا على انفسكم ، وتوزعوا العطية على الفقراء ، فإذا منعكم الله شكرتم . . . هذا ما ينبغى أن يكون عليه حالكم .

تذكر الأمير هذا كله ونظر إلى كلبه وربت على رأسه وهو يقول له : لم يزل حالى مثل حالك لم أتقدم عنك خطوة .

أحيانا كان الأمير يقارن بين نفسه وبين كلبه . . لقد خلقه الله فى

صورة إنسان وخلق الكلب فى صورة كلب ، فلا هو سئل هل يحب أن يكون إنساناً ، ولا الكلب سئل هل يود أن يكون كلباً . .

لقد وقع اختيار الحق عليه لتكريمه ، ووقع اختيار الحق على الكلب ليكون فى خدمته . . ولقد أكل الكلب من يديه فلم يهدر له أمراً بعد ذلك ولم يعصه قط ، أما هو فقد أكل من يدى الحق سبحانه وعصاه فى ملكه . . وزاد تقدير الأمير للكلب ولم يعد يرى صورته . . إنما صار قادراً على النفاذ إلى الآية المعجزة التى تختبيء جيداً وراء الصورة . .

هذا الحنان الواسع الغامض . . وهذا الود المستمر الذى لا يتعلق بعطاء أو منع ، وهذه الطاعة التى لا تتوقف لتسأل أى منفعة تجنيها . . . وهذا الإيناس الذى يمحو إحساس الإنسان بالوحدة . . وهذه الحراسة الساهرة التى تنام بعين مغمضة وعين مفتوحة . .

كان هذا الثراء كله يتنكر فى جلد الكلب ويختفى وراء صورته . . وقاد الكلب أميره إلى معرفة جديدة . .

لم يعد الأمير يلتفت إلى الصور البادية للخلق ، وإنما صار قادراً على أن ينفذ من وراء الصور إلى الآيات المعجزة التى بثها الله فى الخلائق والأكوان . . وخرج الأمير يوماً إلى السوق ليعمل . .

مر جوار الجوارى فسمع جارية تناديه بإسمه ، وهى تسبق إسمه بلقب الأمير . . التفت الأمير فوجد جاريته الأثيرة أو جاريته التى كانت أثيره ، وجدها تقف فى سوق الجوارى فى انتظار من يشترى . . . أشار الأمير بيده إلى فمه إشارة تأمر بالصمت واقترب من الجارية . .

قالت له الجارية بصوت مهموس : أيها الأمير . . ماذا فعلت بنفسك وماذا فعلت بنا . . ؟

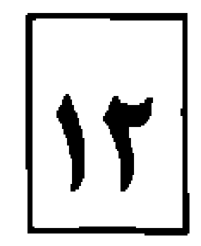
لم يرد الأمير . . .

وبدأت الجارية تبكى وهى تحدثه عن حبها له وضياعها بعد خروجه . . ختمت الجارية بكاءها بالتوسل إلى الأمير أن ينقذها من محنتها ويشتريها . .

صعبت الجارية على الأمير ولم يعرف ماذا يقول لها . . . مد يده فى جيبه فلم يجد شيئا ، وتذكر أنه جاء إلى السوق ليعمل . .

قال للجارية : ليس معى ما يكفينى لشراء نفسى ، فضلا عن شرائك . . وتنبه تاجر الجوارى إلى خروج الجارية من الدكان وسيرها وراء الأمير . . فخرج من دكانه وأمرها أن تعود إلى مكانها ، وقال وهو يضحك

- الم تجدى أحداً يشتريك غير هذا الأحمق . . هذا درويش لا يملك ثمن طعامه . . نبح الكلب كأن الكلام لم يعجبه ، وانطلق الأمير خارجاً من السوق وهو يسرع فى سيره .



عاد الأمير لاهث الأنفاس إلى كهفه فى الجبل . . كان يحس حزناً خفيفاً لا يدرى مصدره ، وقال لنفسه أن دموع الجارية وتوسلاتها قد أثرت فى قلبه . . وأدرك الأمير أنه لم يزل مشدوداً للدنيا فثقل حزنه . .

كانت رسالته الثانية التى بعث بها لقائد جنده منذ عام قد أراحت ضميره قليلاً ، وهكذا بعث رسالته الثالثة إلى قائد جنده . . وفى هذه الرسالة الثالثة ، أمر الأمير بعدة إصلاحات رأى أنها كافية لإنقاذ فترة حكمه من المظالم التى وقعت أثناءها أو بعدها . . كما أن الأمير أصدر سلسلة من الأوامر كان من بينها إطلاق حرية الجوارى ، ومنع تجارة الرقيق ، وتمليك أرضه للعاملين فيها من الفلاحين . .

بعث الأمير برسالته وخرج من كهفه قاصداً التكية . .

لم تصل رسالة الأمير إلى قائد جنده . . وإنما وصلت إلى يد إبنه الأمير الصغير ، كان قائد الجند فى السجن . . لم يستطع القائد أن يساير جموح الأمير الصغير أو يخضع لنزواته ، وكان يعتبر نفسه من رجال الأمير إبراهيم ، ورغم أنه حاول أن يثبت ولاءه للأمير الصغير إلا أن الأمير ظل ينظر إليه بعين الريبة والشك ، وذات صباح صدر أمر من الأمير الصغير

بتعيين قائد جديد للجند . واحالة القائد السابق إلى التقاعد . . وأخذاً بالأحوط تقرر أن يكون هذا التقاعد فى السجن . . حتى يكون القائد السابق قريباً من عين الأمير الصغير .

. . . .

قصر الأمير . . يجلس الأمير الصغير وأمامه رسالة أبيه . . قائد الجند الجديد يقف أمامه . . قال الأمير الصغير وهو يزفر بضيق . .

ـ ماذا ترى فى هذه الرسالة الجديدة . .

قال القائد : هذا خط والدك كما تقول ، لكن هذه ليست أفكار حاكم مسئول . . هذه أفكار حفنة من الدراويش الحمقى . .

قال الأمير الصغير : لست أسألك عن الأفكار . . أنا أسألك عن العمل . . بم تنصحنى . .

قال القائد : قد لا تعجب نصيحتى الأمير . . وربما رأى فيها غلوا فى حبه .

قال الأمير الصغير : لا تحدثنى بالألغاز . . تكلم أيها القائد . .

قال القائد : أنا أعرف أين يختبىء والدك الأمير . . لقد تعرفت عليه جاريته التى تخلصنا منها . . وقد زعمت الجارية أنها شاهدته فى السوق . . هل تعرف ماذا كان يعمل فى السوق . . كان ينظف الدكاكين مقابل طعامه وشرابه . . هل تصدق هذا أيها الأمير . .

بهت الأمير الصغير وهو يسمع أنباء والده . . قال لقائد جنده

ـ متى عرفت هذا كله . .

قال القائد : عرفته اليوم ، وقد استدعيت الجارية وحققت بنفسي معها ، وأيقنت أنها لا تكذب . .

إستمع الأمير الصغير مصعوقاً إلى أخبار أبيه . . أنه يحكم منذ عامين حكماً فعليًا ، وهو يتصور أن والده قد ضل طريقه فى الجبل فأكله ذئب من ذئاب الجبل . . لكن ما خشيه قد تحقق ، يستطيع أبوه الآن أن يعود فى أى لحظة إلى الحكم والإمارة . وهذا يعنى أن الأمير الصغير سيعود كما كان بعد أن كبر . . وبدت له هذه الحقيقة مريرة ومستعصية على الإدراك . .

قال القائد : هل يسمح لى الأمير أن أعرض عليه حلاً قد يكون أقسى الحلول ؟

قال الأمير ـ غائب الذهن ـ ماذا تريد أن تقول؟

قال القائد : أريد أن أقول أن والدك الأمير عليه رحمة الله قد أهدر دم نفسه .

قال الأمير ـ وهو يعود إلى الإنتباه ـ : ماذا تعنى ؟

قال القائد : لقد خرج الأمير السابق من عقله ، وهو يحطم الدولة الآن . . وليس هناك من حل سوى حل واحد . .

سأل الأمير : أى حل ؟

قال القائد : أن والدك يتصرف مثل عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز ، ناسياً أننا لسنا فى عصر العمرين وأننا نحن فى عصر معاوية . .

وقد حلها معاوية طيب الله دهاءه وثراه . . هل أستمر فى الحديث يا مولاى .

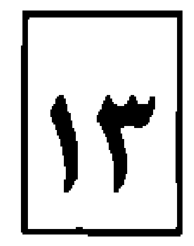
قال الأمير : إستمر . . إستمر .

قال القائد : كان معاوية يقول : إن لله جنوداً فى العسل . . وكان يقصد بذلك أن هدية من العسل المسموم يمكن أن تغنيه عن تحريك جيش وجند وإنفاق جهد . . والجنون مرض لا شفاء منه ، ولكنه فى الرؤوس الكبيرة يمكن أن يؤدى إلى قلاقل ، وقد بعثت مع الجارية جرة من عسل معاوية ، وبعثت الجارية وراء الأمير . . وسوف ينتهى كل شىء فى هدوء وسلام . . هل أستمر فى الحديث يا مولاى .

قال الأمير : إستمر . .

قال القائد : اقترح أن نعلن عن موت الأمير السابق فى رحلة صيد خرج إليها منذ عامين ، وأقترح أن يتم تنصيبك أميراً على الممالك السبعة ، وأقترح إحراق رسالة الأمير السابق . .

أمسك القائد بالرسالة وأشعل فيها النار ، وتأمل الأمير الصغير رسالة أبيه وهى تحترق . . وتصاعد من قلبه أحساس غامض بالراحة .



كان الأمير الحقيقى فى السوق حين أعلن المنادى عن موته وتنصيب إبنه بدلاً عنه . . وتهامس التجار فيما بينهم وبين أنفسهم .

قال أحدهم همساً : لقد قتلوه . . وزعموا أنه خرج فى رحلة صيد منذ عامين . . هل يصدق أحد أن هناك رحلة صيد تستغرق عامين . إبتسم الأمير فى قلبه وقال لنفسه : لم يقتلوه . . ولعلهم أعطوه حريته أخيراً . . إنسل الأمير من السوق عائداً إلى كهفه وكلبه يتبعه . . وجد فى الكهف رسولاً من الدراويش . .

قال له : شيخك يريدك الآن فاذهب إليه . .

سار الأمير حتى وصل إلى تكية الدراويش . . دخل إلى شيخه فقال له الشيخ ـ اغلق الباب وتعال أحدثك . .

أغلق الأمير الباب وجلس بين يدى شيخه . .

قال الشيخ : جاءت جارية من قصرك ومعها جرة من العسل . . وقد اعطينا الجارية حريتها ولكنها أبت أن تمضى قبل أن تراك وتتحدث إليك . . إذهب وتحدث إليها ، لا تحتفظ بها . . إصرفها برفق وإكذب

عليها لو إقتضى الأمر .. أما جرة العسل التى أهديت إليك فقد تحطمت منا وأنقذتك ..

إصرف الجارية وأخرج أنت من البلاد كلها .. ونزعم أنك أكلت من العسل وأدركك الموت .. وسوف ندفن مجموعة من الحجارة فى قبر قريب ونقول : هنا دفن الدرويش إبراهيم ابن إدهم .. إذهب الآن ..
إستمع الأمير إلى شيخه وهم أن يسأله أو يستوضحه ولكن شيخه قال

- إذهب الآن ولا تضيع الوقت بالأسئلة ..

وخرج الأمير كما أمره شيخه ..

....

قصر الأمير ..

الأمير الجديد جالس أمام قنينة من الشراب ومعه قائد جنده ..

قال الأمير لقائد جنده : إشرب أيها القائد الداهية .. إشرب .. لم أكن أعرف أنك بكل هذا الدهاء .. إن لك عندى جائزة لا تستطيع تصورها .. شرب القائد كأسه وعبه عبا .. سقط الكأس من يده وهوى جوار كأسه .. وإنتظر الأمير قليلاً حتى تأكد أن قائد جنده قد رحل بالسر عن عالم الأحياء وأرسل يستدعى الطبيب ..

....

طريق الصحراء .. إبراهيم بن أدهم يسير كما أمره شيخه .. لا يعرف إلى أين ولكنه يسير .

١٤

إمتدت الصحراء أمام الأمير مثل إبتسامة صفراء غامضة لا أحد يدرى أى ويل تخبئه وراءها . .

ربما هو القبض . . ولعلها هيبة الصحراء . .

بعد قليل غاب الأمير فى الرمال ولم يعد يظهر منه غير ثلاث نقط . .

كانت الجارية تسير وراء الأمير ، أما الكلب فكان يتقدمهما معاً ليطمئن على صدر الطريق ثم يعود إليهما حيث يسير فى عكس إتجاههما ليستكشف ظهر الطريق ، ثم يعاود سيره فى المقدمة . . كان واضحاً أن الكلب سعيد بهذا السير ، كان يبدو مثل طفل خرج أبويه فى رحله وصحباه معهما . .

توقفت الجارية فجأة وقالت : سيدى الأمير . . لقد تعبت من السير

توقف الأمير وقال لها : لست سيدك الأمير ولست سيداً لأحد ، إنما أنا درويش كما ترين . . وقد أفهمتك أن ترحلى عنى ، وأكدت لك أنك لن تطيقى الحياة معى . . ولكنك أصررت على المجىء . .

قالت الجاريه وهى تمشى : لن أفتح فمى بكلمة بعد هذا . .

عاد الأمير يسير ، وهو يفكر فى مملكته التى خرج منها . . ترى كيف يمضى فيها الحال؟ هل ينفذون أوآمره التى بعث بها منذ شهرين . . ؟ هل يردون المظالم ويقيمون العدل ؟

كان يحس داخله بقلق خفى . . إنه يحسن الظن بقائد جنده ويحسن الظن بإبنه ، ولكنه فكرأنه لم يكن يرى ولده هذا الا قليلاً ، وهو لا يدرى أى خصال ينطوى عليها . .

أحس الأمير بالخجل من نفسه . . قال يحدث نفسه : مازلت مشدوداً الى الماضى . . إلى الدنيا . . مازلت فى حانة الدنيا ولم أدخل بعد خيمة المعرفة . . التفت الامير للجارية وسألها ـ لماذا خلقك الله أيتها الجارية . .

قالت الجارية : لكى نعيش . .

قال الأمير : إن الكلب لو أجاب على السؤال لأجاب بمثل ما تقولين . .

قالت الجارية وهى تبتسم بلطف كأنها تبتسم لنفسها ـ هذا كل ما أعرفه . .

فكر الأمير قليلاً ثم أحس بالخجل من نفسه لانه يزهو علي الجارية فى قرارة نفسه ، بينما هو مثلها لا يعرف فى مجال المعرفه الكلية شيئاً ذا بال . .

توقف الأمير الدرويش بعد فترة من السير ، توقف حين صار الظل عمودياً ، جلس يستريح ، وإرتمت الجارية على الأرض وهى تلهث ،

كان وجهها مغطى بالعرق . . ونظر إليها الأمير وقال فى نفسه أنها لن تكمل الرحلة . . مد نظره إلي الصحراء فبدت له بصرامتها وصمتها أستاذاً من أساتذة الحكمة ، أستاذاً لا يسهب في الحديث . . ربما خضوعاً للمنطق الذى يقول « اذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة » . .

إختفي الكلب حين جلس . . وأدرك أن الكلب يستكشف المنطقة من جهاتها الأربعة ، ويجرى فيها ليطمئن على سلامتها ويقوم بواجب الحراسة المفترض فيه ، وامتلأ الأمير عجباً داخل نفسه . .

هذا الكلب لم يكلفه أحد بالحراسة ، ولا بتأمين الطريق ، ولكنه يفعل هذا كله بفطرته التى فطره الله عليها . .

وهو ليس كالحارس . . ربما خالجه الطمع فيما يحرس . . أبداً . . إن هذه الأفكار لا تعبر رأس الكلب . . إن رأسه وفاء مطلق . . وهو لا يكلف صاحبه شيئاً إلا قطعة من العظام أو مسحة حانية على الرأس . .

تنهدت الجارية تنهيدة ثقيلة فالتفت إليها الأمير . . قالت بعينيها دون أن تتحدث ـ إننى خائفة . .

قال الأمير لها وهو يشيح بوجهه : لا تخافي . . نحن فى أمان هنا . .

قالت الجارية : هذا صحيح يا سيدى الأمير . . ما الذى يمكن أن يصيبنا أسوأ من ذلك . . نحن ضائعون فى الصحراء ولا نعرف إلى أين نذهب . .

قال الأمير : نحن لم نزل فى بداية الطريق . . والعودة الآن ميسورة ، هل تحبين العودة . .

قالت الجارية : أنا معك يا سيدي الأمير حتى الموت . .

قال الأمير : توقفي عن الشكوى أذن ، ولا تبددى طاقتى في حوار لا معنى له معك . . لا تشغلينى بنفسك . . إننى أحاول إنقاذ نفسى وليس لدى وقت أضيعه . . صمت الأمير وصمتت الجارية وظهر الكلب فجأة . . إندفع الكلب نحو صاحبه ونمطع ومد رأسه . . وربت الأمير بيده علي رأسه .

قالت الجارية : إنك تحتفل بالكلب وتحبه أكثر مما تحبنى .

لم يرد الأمير علي ملاحظة الجارية

صمت وهو يؤنب نفسه لأنه سمح للجارية بمرافقته . . وأحست الجارية أنها أغضبته فراحت تتوسل إليه أن يقبل عذرها ، فهى تقطع الصحراء للمرة الأولى ، والأمر كله بالنسبه إليها تجربة مخيفة . .

قبل الأمير عذرها وقال لها : أنا لا أحب الكلب أكثر مما أحبك . . أنا لا أحب الكلب ولا أحب أحداً من البشر . .

قالت الجارية : ولكن وجهك يضيء حين ترى الكلب ، وأنت تهش له وتحتفل به وتربت على رأسه . . لماذا ؟

قال الأمير : لماذا . . لأنه لا يتحدث . . لا يثرثر كثيراً . . إنه يتفاهم معى دون كلام . . إنه ينظر في عينى ويعرف ماذا أريد ويسرع لأدائه . . إنه لا يكلفنى جهداً . . ولا يضيع وقتى ولا يبدد طاقتي . . ثم أن هذا الكلب أفضل منى فى ميزان القيمة النهائية . . إنه يأكل من

بدى ولا يعصى لي أمراً ، أما أنا فآكل من يد الله ولا أنفذ له أمراً . . هل رأيت لماذا هو أفضل منى ؟

قالت الجارية لنفسها : لقد جن الأمير دون شك . . كنت أعتقد أنه بعقله ، ولكن عقله فيما يبدو قد هرب هروب الطير المفزوع . . ماذا أفعل الآن ؟ تلفتت الجارية حولها وراحت ترقب منظر الرمال الصفراء فأحست بالإنقباض والخوف . . قالت تتمتم لنفسها .

ـ هذا السكون المخيف !

نفس الوقت . . كان الأمير يستلقى علي الرمال بعد أن صنع من عباءته خيمة صغيرة تقيه من الشمس ، تأمل سكون الصحراء وصفرتها واستشعر الراحة وغرق في تأملاته . . إن الصحراء بإنكشافها ووضوحها وعريها لا تقبل أنصاف الحلول أو المساومات ، كما أنها بجديتها وصرامتها تنفر من اللغو والهراء ، وهى أكثر البيئات قدرة علي تعليم فضيلة الإعتماد علي الذات . . كما أن ثمة شيئاً فى إمتدادها اللانهائى يوحى بالحرية مثلما يوحى بالتواضع الإنسانى ، غفا الأمير قليلا ثم إستيقظ علي صوت جلبة . . كانت القافلة التي ينتظرها قد وصلت أخيراً . . . وتقدم منه رجل يمسك فى يده مقود جملين قدم له واحداً وقدم الآخر للجارية . .

بدأت القافلة تشق طريقها فى الصحراء . . لم تكن هذه أول رحلة للأمير فى الصحراء ، ومن هنا فقد كان يجيل بصره حوله ويتأمل ثبات الصحراء ويعرف إن ما يبدو له فى الظاهر ثباتاً يخفى وراءه حركة مستمرة

وإن كانت بطيئة .. إن كل شيء يتحرك في الصحراء .. الرياح والرمال والسحب ..

تبدو الرمال جامدة وثابتة ولكنها تتحرك حركة خفيفة وبطيئة ، وتغير أماكنها طوال الوقت ، وتسافر مثلما تسافر القوافل بالرجال والهجن .. كان الأمير هادئاً كالصحراء ، ولكن باطنه كان يتحرك حركة خفيفة تنبيء بإقتراب عاصفة ..

لقد إستمع الأمير إلى أخبار وطنه الذي هجر الإمارة فيه منذ عشر سنوات ، كانت الأخبار كئيبة ..

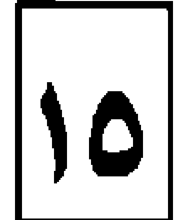
لقد إختفى العدل تماماً ، وأصبحت القوة هي لغة الحياة اليومية ، والأمير الجديد الذي تركه والده وهو يدرس الحساب والجبر قد كبر الآن وإنكشف عن طاغية صغير لا يصمد له أحد ، ولا يناقشه أحد ، وعاودت الحياة سيرتها معه كما كانت مع أبيه ..

إنه يستيقظ بعد غروب الشمس ، ويبدأ اللهو ممتداً في عالم الليل ، أما عالم النهار فكان مخصصاً لتنفيذ الأوامر التي صدرت أثناء الليل تحت ضغط الشراب أو النشوه ..

سأل الأمير عن قائد جنده فأخبروه أنه مات في السجن .. من الذي أمر بسجنه .. وكيف أكلفه شيئاً و .. لم يكمل الأمير جملته وإبتلع بقيتها .. لقد ادرك قبل أن يسأل السؤال مدى سذاجته .. من الذي أمر بسجنه؟ الأمير الجديد .. إبنك .. قطعة منك رغم كل شيء .. وريثك في الشر وخليفتك في عالم الليل الممتد بآثامه ومغرياته .

ـ فيم إذن كان الخروج . . لقد خرجت طلباً للعدل وإنقاذاً لرأسى ، فهل أنقذت رأسى أم كبلتها بهذه المظالم الجديدة . . لقد أطلقت تياراً للشر حين خرجت مثل تيار الرمال الذى يهب الآن على القافله ويدفع الجميع لأغماض عيونهم والتدثر بعباءاتهم . . أغمض الأمير عينيه ومضى يجتر ماضيه ثم سئم من حيرته فعاد يقول لنفسه ـ ما حدث قد حدث وهذا قضاء فى نهاية الأمر رغم أنه يبدو إختياراً حراً .





تحول الصفاء العظيم الذى يحمل لونين هما زرقة السماء وصفرة الرمال إلى لون واحد هو لون العاصفه الرملية . .

فى البداية تحركت الرمال ببطء ثم انحدرت فى اتجاه القافلة ، وعلت السماء حمرة قاتمه ، وتعكر الجو وانتشرت غبشة حمراء فى الصحراء ، وراحت الرياح تزمجر وهي تجتاح المنطقة من كل صوب ، وبدأت العاصفة الرملية . . حين لم تعد الوجوه تتحمل صفعات الرمال ، حين أظلمت السماء وامتلأ الهواء بغبار الرمل المدوم الذى يحجب الشمس والضياء . . حين وقع هذا أصدر المسئول عن القافلة صرخات سريعة آمره فتوقفت الجمال والخيل واختبأ ركابها فى صدرها . .

أناخ الأمير بعيره وإلتمس الكلب فلم يجده . . صرخ يستدعيه فلم يظهر الكلب . . حاول أن ينظر حوله ليعثر عليه ولكن الرمال كانت أقوى من قدرته على النظر فأغمض عينيه والتف بعباءته وانكمش بجسمه في أحضان الجمل ولم يعد يبحث عن الكلب . .

أما جارية الأمير فقد أستبد بها الفزع فصرخت وحاولت أن تجرى في

الصحراء بناقتها ولكن قائد القافله أمسك بها ، وهددها بالجلد أذا إستسلمت لفزعها . . سئل المسئول عن القافلة : جارية من هذه !

قيل له : هذه جارية الدرويش إبراهيم .

قال الرجل : لم نسمع إن للدراويش جوارى . . على أى حال ، لولا أنك جارية الدرويش لجلدتك . .

بعد لحظات لاحظ الأمير أن جسداً يحاول التسلل تحت عباءته . . فتح العباءة فإنسل الكلب إلى أحضانه ورقد وهو مغطى بالرمال . . إحتضن الأمير كلبه وراح يفكر فى نفسه ، كانت العاصفة الخارجية قد صرفته عن عاصفته الداخلية التي تدور رحاها فى عقله ، بعد قليل سمع صوت قائد القافلة يأمرهم أن يتحركوا من أماكنهم ويبدلوها بأماكن جديدة حتي لا تطمرهم الرمال ويتعذر إخراجهم من تحتها . . واستمرت الرياح تدوي ، واستمرت الرمال تغطيهم وترتفع فوقهم فيبدلونها ويعودون إلى الإختباء فى أحضان الجمال . . كان حظهم طيباً فلم تستمر العاصفه طويلاً .

هدأت العاصفه فجاه . .

تغير الجو من العنف إلى السكينة ، وإختفت الرمال وضاعت الغبشة الحمراء وعاد اللون الأزرق والأصفر يتربعان على عرش الأفق . . وأمر قائد القافلة أن تنهض الجمال وتستأنف القافلة سيرها . .

كان الأمير مرتاحاً بعد أن ترجمت العاصفة عن مشاعره الخاصة . . أما الجارية فكانت ترتعش من الخوف والفرح ولا تصدق أنها نجت

بحياتها من الهلاك ، أما الكلب فقد كان أكثر الجميع واقعية ، لقد نفض نفسه عدة مرات حتى تخلص من لون الرمال الأصفر ، ثم عاود سيرته في الجري قبل القافلة حتي إذا سبقها بمسافة كافية عاد إليها مسرعاً يهز ذيله . .

أخيراً وصلت القافلة إلي قرية يخترقها نهر تنتشر الأشجار والخضرة علي جانبيه . .

إنصرف الدرويش إلى خان يقع في ضواحى القرية . . دخل غرفته فوجد الجارية تنتظره فيها . . أحس أن وجودها ثقيل على قلبه فتجهم وجهه وصرف نظره عنها وسألها .

ـ ألم تقنعك العاصفة بالرحيل ؟

قالت الجارية : كادت تقنعنى لولا أننى صبرت .

قال الأمير : لا تصبري .

قالت الجارية ووجهها يمتقع : أنت لا تريدنى معك ، أنك تحتمل الكلب ولا تحتمل وجودى . . هل تحب أن أغنى لك أغنية . . أو أعزف على الطنبور . . أو تحب أن أرقص . . أعرف رقص أهل الروم . .

قال الأمير : إننى أفضل الصمت . . لقد خلعت نفسى من الدنيا ، ولكن الدنيا ـ ممثلة فيك ـ تطاردنى . . إننى أسألك العفو عنى . . دعينى فى حالى وانصرفى عنى مشكورة مأجورة . .

قالت الجاريه وهى تنهض : أنت غاضب يا سيدى الأمير . .

إنتهرها الأمير و أفهمها أنه درويش فحسب ، وصححت كلامها وقالت : أنت غاضب مني يا سيدي الدرويش .. ولكن عندما يهدأ غضبك سترى انى أستطيع ان أفيدك فى أشياء كثيرة .. إننى أطهو جيداً .. وأغسل الملابس جيداً .. لست كالبومة ..

إحتدم الحوار بين الجارية والأمير وراحت الجارية تندب سوء حظها وتبكي ، ثم سمع نقر خفيف على الباب ..

فتحت الجارية الباب قبل أن يمنعها الأمير .. كان صاحب الخان يريد الدرويش ولكنه فوجيء بوجه باك يطل عليه .. وأغلق صاحب الخان الباب وتهيأ للإنصراف ولكن الأمير لحقه وفتح الباب ..

كان صاحب الخان يضحك وهو يردد لنفسه : درويش فى غرفته امرأة .. تجاوز الأمير عما قاله صاحب الخان وسأله : فيم كنت تريدنى .

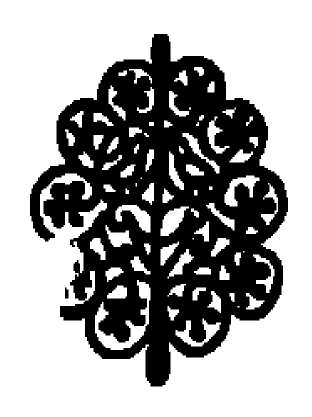
قال صاحب الخان : الدراويش يدعونك الليلة للعشاء والحديث ، هل أقول لهم انك مشغول ..

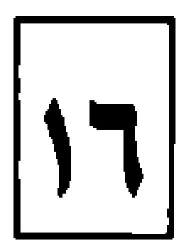
قال الأمير : لست مشغولاً .. إنتظر .. إبحث لهذه الجارية عن موضع مع النساء لتقضى الليلة فيه ..

إنصرفت الجارية وبقي الأمير فى غرفته وحده ، ثم سمع صوت خربشة على الباب ، ذهب يفتح الباب فدخل الكلب .. وفكر الأمير أنه نسى أن يأمر صاحب الخان أن يطعم الكلب .. رغم هذه الخطيئة التى تقطع بعدم إهتمام الأمير بالكلب ، بقى الكلب على وفائه الراضى

وحبه المتوهج .. ظل يهز ذيله للأمير ثم جلس أمامه على الأرض مستسلما يرتاح من وعثاء السفر .. تأمل الأمير الكلب وابتسم ..

إن الكلب هو الكائن الوحيد الذى لا يعرف أن الأمير لم يعد أميراً ، وإنما صار درويشاً .. إن الناس عموماً تتعامل مع الأمير بأشكال مختلفة، التجار يتعاملون معه بقدر ما فى جيبه ، والدراويش يتعاملون معه بقدر ما في قلبه ، أما الكلب فأنه لا يتحول مع تحولات الريح .. إن حبه ثابت مستقر كالجبل.. لقد قابل صاحبه حين كان أميراً ، لعامله كأمير ، ولو قابل صاحبه حين كان متسولاً لعامله أيضاً كأمير .. إن الكلاب تعامل أصحابها جميعًا كأمراء .. إنهم يطيعون الأوامر التى تصدر إليهم دون مناقشة .. إن الكلب يأكل من يد صاحبه ويطيعه . أما الإنسان فيأكل من يد الله ويعصاه .. أتكون نفس الإنسان أدنى من نفس الكلب فى بعض الحالات .. أيكون هذا ممكناً رغم كل التكريم الذى كرمه الله للإنسان ، ونزل عنه الإنسان مختاراً .. نهض الأمير ووضع عباءته علي كتفه وزايل المكان .





جلس الأمير إبراهيم فى حلقه الدراويش ، كانت وجوههم كلها غريبة عليه ، وكانوا أخلاطاً من أمم شتى . .

فى البداية إستمعوا لإنشاد بلغة لم يعرفها الأمير ، ثم تناولوا كؤوس اللبن الحامض ثم وضع الطعام .

أنشأوا يتحدثون عن أمور شتى . . كان بينهم درويش شيخ يوقرونه بصفة خاصة ، وحين انتهى الطعام جلسوا حول هذا الدرويش الذي بدأ كلامه بسؤال : من هو قطب هذه الأيام ؟

لم يتقدم أحد للإجابة على السؤال ، وتحلقت العيون حول الدرويش الشيخ وظلوا صامتين كأنهم يرقبون إجابته هو . .

قال الشيخ : أنا أعرف جواب هذا السؤال . . ولكن الجواب سر . . فكر الدراويش قليلا وقال احدهم : أنا نثر يكتم أى سر . . وأحسب أننا جميعاً كذلك . . هز الدراويش رؤوسهم موافقة . . فعاد الدرويش الشيخ الى الحديث . قال : قطب هذه الأيام هو الأمير إبراهيم ابن أدهم . .

شهق الداروبش وقال أحدهم : تقصد الدرويش الحافى . .

قال الشيخ : نعم . . ثم استطرد يقول : خلع موسى نعليه ليقف فى حضرة الحق ، وخلع براهيم إبن أدهم نعليه وخرج من ملكه لنفس السبب . . سكت الدرويش فتحدث واحد غيره . . قال : ان إبراهيم ابن أدهم هو سيد الطريق بغير منازع . . إن أحداً لا يعلو إلا إذا خلع نعليه .

إكتشف الأمير إبرهيم إن الدراويش يتحدثون عنه وهم لا يعرفونه ، ومن ثم فقد وجّه سؤالاً لشيخ الداوبش .

ـ من أين جاءتكم هذه المعرفه المؤكدة . . ربما يكون قد نسى نعله وهو يخرج من قصره .

إلتفت الدراويش إليه فكادوا يزلقونه بأبصارهم . . تصايح أكثر من درويش .

ـ لا تعترض أيها السالك للطريق علي الكرامة . . ليس هذا من أدب السالكين . حاول الأمير أن يدافع عن نفسه ولكنهم كانوا جميعاً ضده فسكت . . تراجع فى نفسه وصمت . . وعاد شيخ الدراويش يحكى عن الأمير إبراهيم حكايات طويلة . . وهى حكايات كانت تؤكد كرامات الأمير وعجائبه ثم رفع الدرويش الشيخ يده فسكت الجميع وأنصتوا . .

قال الدرويش الشيخ : سأحدثكم الآن عن كرامة لسيدي إبراهيم بن أدهم . . كرامة عاينتها بنفسي ورأيتها بعينى .

كرامة لم يحدثنى عنها أحد ، ولا رواها لى أحد . .

سكت الدراويش كأن علي رؤوسهم الطير . . وأنصتوا جيداً وأنصت معهم الأمير مندهشاً مما يقوله شيخ الدراويش ، وإن أخفى دهشته وراء هيئة المستمع المصدق .

قال شيخ الدراويش : كنت أتهيأ لعبور النهر ذات يوم ، فى بلاد ما بين النهرين . . ثم فوجئت بدرويش بائس يجلس على ضفة النهر وهو يخيط قميصه الممزق . . دققت النظر فيه فإذا هو إبراهيم بن أدهم . . تأملت حاله ورق قلبى لبؤسه . .

كان قميصه ممزقاً ، إلى الحد الذى فشل فيه الأمير فى رتقه ، كان كلما سد رتقاً بإبرته وخيطه ، إنفتح رتق آخر في القميص . .

وقلت فى نفسى : لا حول ولا قوة إلا بالله . . كان الأمير إبراهيم أيام الإمارة لا يرتدى القميص إلا مرة واحدة ، ثم يلقيه بعد ذلك فلا يلبسه . . كان يغير كل يوم خمس قمصان أو سته . . وكان الحرير الدمشقى يبدو له خشنا . . وها هى الأحوال تدهور به فيجلس علي ضفة النهر ليرفع قميصه . . ترى بماذا يحس الآن . .

سكت الشيخ قليلاً وتأمل وجوه الدروايش حوله ثم استلى يقول . . وفجأة . . وقعت إبرة إبراهيم بن أدهم في مياه النهر . .

لاحظت أنه يفتش عنها يميناً ويساراً ثم ينظر إلى مياه النهر بحسرة ، قلت فى نفسى : لقد فقد الدرويش إبرته ولم يعد قادراً على رتق قميصه ، أى بؤس يضاف لبؤسه . لم يكن يرانى . . لم يكن إبراهيم إبن أدهم يرانى ، ولكنه رأى بعين الفؤاد ما رأى وأدرك أننى أشفق عليه ، وأراد أن

يلقنني درساً في نفس الوقت .. ولهذا صرخ آمراً وهو يحدث مياه النهر : أريد إبرتي التي سقطت في النهر .. وهنا خرجت من النهر عشر سمكات في فم كل سمكة منها إبرة من الذهب .. وتقدمت الأسماك نحو إبراهيم والقت أمامه الإبر الذهبية وإنسحبت عائدة إلي مياه النهر .

سكت شيخ الدروايش فجأة فتهلل الدراويش وكبروا ، ثم عادوا إلى الصمت وعاد شيخهم إلي الحديث ..

قال : حين اكتشفني إبراهيم بن أدهم أظهرت نفسي له ، وألقيت بنفسي عند أقدامه اسأله المغفرة .

قال لي : كنت تشفق على حالي وتراه بائساً ..

قلت له : نعم يا سيدى الأمير .

قال لي : لست أميراً .. إنما أنا عبد .

قلت له : أنت أمير الطريق .

قال : ليست إمارة الطريق ما اشتهيته .

ثم نهض إبراهيم تاركاً الإبر الذهبية ملقاة جوار النهر ولبس قميصه المرقع وإنصرف ..

عاد الدراويش يهللون ويكبرون ، وجلس الأمير صامتاً وأن كان يغالب ميلاً إلى الضحك ..

لقد تحول أخيراً الى اسطورة يتناقلها الدروايش ، ضاعت حقيقته وسط نسيج الأكاذيب .. ولاحظ الدروايش أنه هو الوحيد الذى لا يهلل ولا يكبر .. سألوه بعداء واضح .

ـ لماذا أنت صامت . .

قال : إنني أستمع لما يقال .

سألوه : لعلك لا تصدق ما يقال .

فكر الأمير قليلا فرأى العيون تتهيأ لإفتراسه ، كان يريد أن يقف بينهم ويقول لهم يا أيها الدراويش الحمقي . . أنا الأمير إبراهيم بن ادهم، وما تقولونه عنى غير صحيح ولم يحدث . . وشيخكم هذا يكذب بيسر كما يتنفس بيسر . . أراد الأمير أن يفعل هذا كله ولكنه تأمل الوجوه الغاضبة التى تحيط به وقال : كيف لا أصدق ما حكى الشيخ . . إنني أصدق ولكننى أسأل : ما معنى ما حدث . . هذا كل ما أحاول معرفته .

نظرت الوجوه الغاضبة إلي شيخ الدراويش وكأنها تنتظر منه أن يجيب على السؤال . . أما شيخ الدراويش فقال ـ المعنى ظاهر ولا خفاء فيه . .

توتر الجو بعد رد شيخ الدراويش ، وبدا واضحاً أن الدراويش ينتظرون مبارزة بين شيخهم وهذا الدرويش الغامض المعارض .

قال شيخ الدراويش مهدداً : المعنى واضح ولا خفاء فيه ولا لبس . . أنظر فيما حدث وسترى المعنى . . أتكون درويشاً وتنكر كرامات الأولياء .

قال إبراهيم بن أدهم : أنا لا أنكر الكرامة . . إنما اسأل عن معناها .

قال شيخ الدراويش : معناها ان مُلك إبراهيم بن أدهم وهو درويش زاهد أعظم من مُلكه وهو أمير . .

هلل الدروايش وكبروا وسكت إبراهيم بن أدهم ولم يعرف ماذا يقول . . كان واضحاً للحاضرين أنه انهزم . .

وفكر الأمير إبراهيم قليلا وإتسعت إبتسامته الساخرة ثم نهض واقفاً وقال ـ أيها الدراويش الحمقى إننى أنا الأمير ابراهيم . . وما تقولونه عنى غير صحيح . . لقد خرجت من القصر حافياً لأننى نسيت نعلى ، ولم تخرج لى أسماك النهر عشر إبر من الذهب ولا من الفضة ، ثم إننى . . . لم يتركه الدراويش يكمل كلامه . . تصايحوا حوله إنه زنديق قد إندس بينهم ، وتجمعوا حوله وأمسكوا بثيابه وراحوا يجذبونه ويدفعونه ، ولكن شيخ الدراويش رفع يده فأخلدوا إلى الصمت ، ونهض شيخ الدراويش وتقدم نحو إبراهيم ووقف أمامه يتأمل وجهه ثم إنحنى وسط دهشة الحاضرين يقبل يده ويبكي وهو يقول : لا يعرف الولي انه ولي . . من حقكَ يا قطب الزمان أن تنكر كراماتك وتخبئها عن عيون السالكين . . هذا حقك . . إنصرفوا الآن ودعوا القطب بمفرده . . ولا يفشي أحدكم سره . .

إنصرف الجميع بهدوء ، وإنصرف الأمير إبراهيم بعدهم . . في البداية ظل جالساً فى مكانه لا يعرف ماذا يفعل ، وفى النهاية نهض ووضع عباءته وخرج إلى الطريق ، كان الكلب ينتظره عند الباب . .

تقدم الكلب وسار عائداً إلي غرفة الأمير في الخان ، وسار وراءه

إبراهيم وكان قد نسي أين يقع الخان . . كان الأمير مضطرباً بعد لقائه العاصف بالدراويش ، وكان متحيراً لهذه النهاية التى انتهى إليها الصراع، لم يكن يفهم شيئاً . . وراح يفكر فى شيخ الدراويش ، لقد كان الرجل يبدو صادقاً مع نفسه ، وكان يبكى كالأطفال . . أين الحقيقه إذن ؟

استقر الأمير فى غرفته فترة ، ثم سمع صوت نقر خفيف على الباب، نهض الكلب ونبح ، وإرتعد إبراهيم من نباح الكلب المفاجىء ، ونهض يفتح الباب فوجد شيخ الدراويش يقف ووراءه درويشان يحملان الهدايا، قال شيخ الدراويش لإبراهيم : لى معك كلمة لو أذنت لى . .

أفسح إبراهيم مكانًا فدخل الدرويش، ووقف الكلب موقفاً عدائياً من شيخ الدراويش ولكن إبراهيم ربت على رأسه ، وحدثه قائلاً : ـ

هذا شيخ الدراويش فالزم الادب . .

إلتزم الكلب أمر صاحبه وابتعد . . وقال شيخ الدراويش وهو يعجب .

ـ إن الكلب يفهم ما تقوله .

وضع الدرويشان الهدايا عند الباب خوفا من الكلب ثم انصرفا ، وأدخل شيخ الدراويش الهدايا وقال لإبراهيم .

ـ معذرة عن اقتحام غرفتك ولكن لي حديثاً معك . .

قال الأمير إبراهيم : إننى أستمع إليك . .

قال شيخ الدراويش : هناك طير نادر جذاب ، طير مقره بلاد الهند، لهذا الطير منقار صلب طويل وعجيب ويشبه الناى .. ومثل الناى به عديد من الثقوب ..

إن فيه ما يقرب من مائة ثقب وفتحة .. وهذا الطير يبقى بغير زواج، وهو يعيش في عزلة عن بقية الطيور ، وهو ينوح من خلال ثقوب منقاره ، ولكل ثقب نغمة متباينة ، ووراء كل نغمة أسرار مغايره ، وعندما ينوح هذا الطير من خلال ثقوبه يسيطر الصمت على بقية الطيور، ويبكى السمك فى البحار كما تسيل دموع الطير فى السماء .. ويعيش هذا الطائر حتى يبلغ عمره ألف عام ، وعندما يحين أجله ، يجمع حوله من الحطب مائة كومة ، ويبدأ فى مواصلة النواح والبكاء ، ويخرج من خلال ثقوب منقاره مئات الألحان ، وأمام هذه الألحان تخرج حيوانات الغابة المفترسه والوديعه وتتحلق حول هذا الطير لتشهد نهايته .. وهى نهاية عجيبه ..

هل تحب أن أحدثك عن نهايته ؟ كان هذا هو السؤال الذى وجهه شيخ الدراويش للأمير .

كان الأمير يتابع الدرويش فيما يقوله ولا يعرف القصد من حديثه ..

هز الأمير رأسه ليكمل الدرويش حكايته .. عاد الدرويش يقول :

ـ عندما يصل هذا الطير إلى نهاية عمره ، ينزف دماً من آلام قلبه ، ويرفرف بجناحيه إلى الأمام والخلف ، وتتطاير النار من جناحه ،

وسرعان ما يشبك الحطب فى النار ، ويحترق الحطب ويلقى الطائر بنفسه فيه ، ويصبح الطائر والحطب كلاهما جمرة من نار . .

يشتعل الطائر فى النار حتى تتحول النار إلى رماد . . ويختفى كل شيء . . عندئذ . . ينهض الطائر من بين الرماد . .

والآن . . أريد أن أسألك : ان النار تحيل الحطب رماداً ، فكيف ينهض الطائر ويعاود الظهور مرة ثانية من بين الرماد . .

كان السؤال موجهاً للأمير ، ولكنه كان لا يعرف ما الذى يقصده الدرويش ، ومن ثم فقد هز رأسه هزة تفيد معرفته بالجواب . .

إبتهج الدرويش من سلوك الأمير وقال يكمل حديثه . .

ـ بسبب مخلب الأجل ، لن يستطيع فرد إنقاذ روحه ، ولو بشتى الحيل . . وفي جميع الآفاق . . لا وجود لإنسان لن يدركه الموت ، ليكن الأجل عاماً أو الف عام . . إن نهايته هي الموت . .

نهض الدرويش بعد كلمته الأخيرة وقبل الأمير وتهيأ للإنصراف . . إستوقفه الأمير وهمس له .

ـ حكاية لقائنا عند النهر ، وظهور الأسماك وهى تحمل إبراً ذهبية ، هذه حكاية لم تحدث . .

قال الدرويش مبتسماً : لا تبتئس . . إذا كانت لم تحدث فسوف تحدث حتماً . . لا تتعجل أمورك وتدثر بالصبر . .

عاد الدرويش يقبل الأمير ثم خرج . . جلس الأمير حائراً اشد

الحيرة، كانت أحداث هذه الليلة الغريبة قد أثارت فى نفسه اضطراباً قوياً ، وتمدد الأمير وأسلم نفسه لنوم عميق بعد عاصفه الصحراء وليلة الدروايش بمفاجاتها . . فى الصباح أيقظوه من النوم قائلين ـ لقد مات شيخ الدروايش ، وهم يتظرونك للصلاة عليه . .

جلس الأمير في فراشه وهو يفكر . . إن معنى إنتظار الدروايش له للصلاة على شيخ الدروايش ، هذا يعنى أنهم يسلمونه قيادهم ويضعونه مكان الدرويش الراحل . .

لقد فهم الأمير الآن مغزى قصة الطائر الذي حدثه عنه شيخ الدراويش ، لقد مات الطائر أو إحترق في خر شوقه وجمر عرفانه ، لقد كان الشيخ ينعي نفسه للأمير . . ويعهد إليه بمسئولية الدروايش . . حين فطن إبراهيم لهذا كله أعد أشياءه علي عجل وقرر الفرار من هذه التبعة . . ما له هو والدراويش . . إنه لم يزل مشدوداً للدنيا يفكر فيها . ومازال يتسقط الأخبار من مملكته ليعرف هل يسير ابنه فيها مسيرة العدل أم مسيرة الظلم ، ثم إنه لم يزل مشغولاً برد المظالم التى تعلقت برقبته أيام حكمه . .

لا . . لن يصبح شيخاً للدروايش ويقضى بقية عمره فى سماع قصص عن الكرامات والخوارق . .

إنطلق الأمير والكلب يتبعه نحو أقرب مكان للقوافل . . هرب من الجارية ومن الدروايش معاً وأسرع يلتحق بأول قافلة تغادر المدينة إلى مدينة نائية تقع على تخوم الصحراء . .

. . . .

بعد خمسة أيام وصل الأمير إلى المدينة التى لم يكن يقصدها . . . ولكنه قال فى نفسه ـ من يدرى . . لعل المشيئة العليا توجهه لهدف لا يدريه الآن . . دخل الأمير أسواق المدينه ومضى يتسكع فيها باحثاً عن وجه يعرفه فلم يجد ، كان يتوق لرؤية الدرويش الذى مر عليه في قصره وخرج هو حافياً وراءه . . لم يجد الأمير ما كان يبحث عنه ، فتوجه إلى خان جبلى وهناك أرشدوه إلى غرفته . .

فتح الأمير باب الغرفه فوجد الجارية تجلس وهى تطهو طعاماً ذكى الرائحة ، كان الأمير جائعاً فسألها بحنق معقول : ما الذى أتى بك إلى هنا . .

قالت الجارية : لحقت بالقافله التى التحقت بها . . أنا قدرك يا سيدى الأمير . .

قال الأمير غاضباً : توقفى عن مناداتى بالأمير . .

قالت الجارية : أنا قدرك يا سيدى الدرويش . . هل أقدم لك الطعام ؟ .

أكل الأمير وظلت الجارية تخدمه حتى انتهى . . احس بالراحة والرغبة فى النعاس بعد أن أكل . .

لم يكد ينتهى من طعامه حتى تذكر الكلب فجأة . . أوحت إليه بصورة الكلب قطعة من العظام بقيت فى طبقه . .

قال للجارية : لقد نسيت إطعام الكلب . .

قالت الجارية : طعام الكلب على باب الغرفة من الخارج . . كيف تنام مع الكلب فى مكان واحد ؟ .

نظر إليها الأمير حانقاً وقال : الكلب لا يزعجنى .

قالت الجارية : ولكنك تترك باب غرفتك مفتوحاً ليخرج الكلب متى شاء . . ألا يزعجك هذا . .

قال الأمير : لماذا يزعجنى .

قالت الجارية : كأنك تنام فى كهف بغير باب .

قال الأمير : أى شيء فى ذلك . . أنسيت إننى درويش .

قالت الجارية : أنا نسيت ، لكنك لم تنسى . .

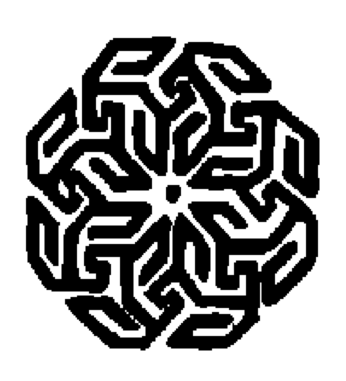
قالتها وخرجت . . إنفرد الأمير بنفسه فراح يفكر . . لقد صدقت الجارية ، لم يزل يتذكر أنه أمير ولازالت أوامره القاطعة السريعة تشى بأنه أمير . . ومازال قلبه وفكره مشغولاً بالأمارة على نحو ما . . إنبعث قلق الأمير وأراد أن يستقر على حال ، وعاد يتذكر صديقه الدرويش ، ربما كان لديه حل لكل مشاكله ، وأزمع الأمير فى نفسه أن يبحث عن صاحبه الدرويش ، خرج من الخان وسأل عن شيخ الدراويش حتى عرف مقره وذهب إليه . .

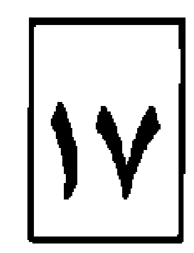
سأله عن صاحبه فقال له الشيخ : سافر منذ عام ونصف .

عاود سؤاله : الم يحدثك إلى أين ذهب . .

فكر الدرويش قليلاً وقال : أحسب أننى سمعته يذكر مكه ، أو لعله ذكر المدينة . . لست واثقاً أين ذهب . . ولكننى واثق أنه مات أثناء رحلته ودفن حيث مات . .

عاد الأمير إلى غرفته فى الخان وهو ضيق الصدر وأميل إلى الحزن . . مات أول أصحابه فى الطريق وها هو يواجه الطريق وحده . . بكل أهواله وأوجاعه وشكوكه .





جلس الأمير مهموماً فى غرفته .. لم يكن يحس بالوحدة لغياب الدرويش بالموت ، لقد ترك الدرويش فى نفسه أثراً يصعب على الموت محوه ، إن الدرويش يبدو له موجوداً بشكل ما داخل نفسه .. إن جزءاً من روح الدرويش ، لو جاز للأرواح أن تترك بعضاً منها فى التلاقى ، قد التصق بروح الأمير ..

كان الأمير يفتقد الآن من يحدثه عما فى نفسه ، ومن يهديه في حيرته .. إنفتح الباب ودخلت الجارية تحمل الطعام واقتربت به من الأمير فأشاح بيده فإبتعدت ..

لاحظت الجارية أن الأمير مكتئب ، أمسكت آلة موسيقية وغنت معها أغنيه حزينة ، كان لحنها قادراً علي النفاذ للأمير وتنويه ، سقطت دموع الأمير على وجهه ، وتوقفت الجارية مذهوله وقالت :

ـ أنك تبكي يا سيدى الأمير ..

قال إبراهيم : لقد مات أول درويش عرفته .

سألت الجارية : متي مات ؟

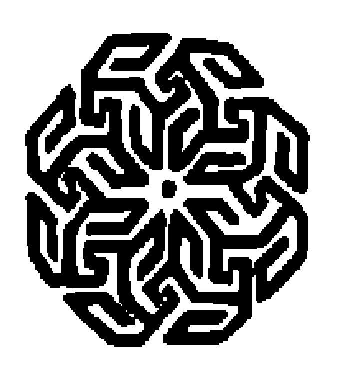
قال إبراهيم : منذ عام ونصف . .

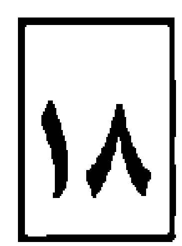
قالت الجارية : أتبكى رجلاً مات منذ عام ونصف ، نحن أولى بالبكاء على أنفسنا . .

سكت الأمير وقال فى نفسه : هذه المرأة رغم حماقتها تنطوى على شىء من الحكمة . .

عادت الجارية تحمل الطعام إلى الأمير : فأكل ، لم يكد يبدأ الطعام حتى ظهر الكلب فجأه . . وقف فاتحاً فمه وهو يهز ذيله هزات سريعة توحى بأنه فى حاجة إلى النجدة . .

ألقى إبراهيم بقطعة من اللحم فقفز نحوها وإلتقطها من فضاء الغرفه وهبط هبوطاً اضطرارياً وهو يهز ذيله هزات أخرى تعنى الشكر . . هذا كلب الدرويش فهل يعرف أن صاحبه مات ، إن تصرفات الكلب توحى بأن صاحبه حى ، بل وفى نعيم مقيم . . أيكون الدرويش حياً فى مكان ما فى الأرض . . لم يعرف الأمير جواب هذا السؤال . .





سار الأمير فى الجبل والكلب يتقدمه . .

كان يصعد الجبل في طريقه لشيء يتوقع وجوده ، وإن كان لا يعرف ماهيته . كان يحس بالصفاء كلما صعد الجبل وتوغل فيه . . هنا حيث لا علائق مع البشر يمكن للمرء أن يفكر ويطيل التفكير والتأمل . .

وصل الأمير إلى أقصى ارتفاع وجلس جاعلاً ظهره لصخرة ، وإنطلق الكلب يجوس فى المكان ويذرعه مثل أى حارس أمين . . تأمل الأمير المدينة التى تقع على تخوم الصحراء . . إن كل شيء هنا يبدو صغيراً وجميلاً ونقياً ومفهوماً ولا تعتريه الحيرة أو الشكوك . . بإستثناء الناظر نفسه ، إن حيرته تنبع من قلق لا يدريه . . لقد كان أميراً فصار درويشاً، وهو الآن لا يعرف من يكون . . هل هو أمير أو درويش أو الأثنان معا أو لا شيء ، لقد إختلطت حياته السابقه بحياته الأسبق ، بحيث صار عسيراً عليه أن ينتزع نفسه من شيء وينسب نفسه لشيء آخر، كان الأمير يحس أنه لا يعرف هويته . .

وكان أكثر ما يؤرقه أنه يبحث عن شيء ليس يدريه بالتحديد . . إن

العدل الذى يحلم بإقامته فى مملكته ليس سوى حلم لا يدرى حقيقته ولا يدرى حظه من التنفيذ . .

أغمض الأمير عينيه إعياء فكاد يستسلم للغفو ، وربما يكون قد غفا برهة من الزمان ، ولكن صوت أقدام تسير أيقظه من الغفو . . كان هناك درويش يسير نحوه ، ألقى الدرويش عليه السلام وجلس جوار إبراهيم ثم اعتصم بالصمت .

سأل إبراهيم : ما الذى ينبغى علىّ أن أفعله ؟

قال الدرويش : « قل سيروا فى الأرض فانظروا »

المياه التى تتوقف عن الجريان تفسد . . فلا تتوقف كثيراً فى مكان واحد .

قال الأمير إبراهيم : توقفت لأسأل سؤالا . .

قال الدرويش : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم »

قال الأمير : هو سؤال يتعلق مصيرى كله به . .

إبتسم الدرويش وقال : مشيناها خطى كتبت علينا ، ومن كتبت عليه خطى مشاها . .

حاول الأميرعبثاً أن يستخلص من الدويش إجابة واضحة عن السؤال الغامض الذى وجهه إليه . . كان الدرويش يضرب له الأمثال ، إما بآيات القرآن أو بكلمات البشر ، وكان المعنى يحتمل أكثر من مفهوم . .

أن يسير وأن يتوقف . . أن يتحرك وأن يسكن . . أن يصبر على قضائه أو يفعل شيئاً لإنقاذ نفسه . . وحار الأمير في اللغة الملغزة التي يتحدث بها الدرويش فانصرف عنه مكتئباً . .

قال له الدرويش بعد أن أعطاه ظهره وسار : مازال قلبك معلقاً بالدنيا فإذهب إلي الدنيا . . أذهب إلي الناس فى الخانات والقوافل ، وسلهم عن مصيرك مادام مصيرك قد خرج من يدك . .

توقف الأمير واستدار إليه وسأل : هل خرج مصيرى من يدى حقاً؟

قال الدرويش : أى حق هذا . . أن مصيرك فى يد الله أيها الآدمى ، لم يخرج من يد الله إلى يدك ، ولا خرج من يدك إلى يد الناس . . اذهب . .

عاد الأمير إبراهيم أشد حيرة مما ذهب . .

ما الذى يعينيه الدرويش . . دخل غرفته فوجد الجارية نائمة في فراشه . . تراجع خطوة واستدار وخرج ، وقف فى الخلاء أمام غرفته يتنفس الهواء بصعوبة ، لقد فهم الآن تحذير الدرويش له . . لهم قوله أن قلبه مازال معلقاً بالدنيا . . يجب أن يهرب من الجارية وأن يتحرك . . كان الليل قد دخل . . فقال لنفسه : سأمضى الليل فى هذا الخان الساهر . . دخل الخان فوجد مجموعة من الدراويش يجلسون معاً فألقى السلام عليهم وجلس بينهم ، كانوا صامتين فلزم الصمت . .

ثم سأله أحدهم : من أين وإلى أين ؟

قال: من بلاد الله إلى بلاد الله . .

تمتم الدراويش : ونعم بالله . .

ثم تجرأ الأمير وسألهم : من أين جاءوا وإلى أين يذهبون ؟

قال أصغرهم فررنا من مملكه المدائن السبعة ، ولا نعرف إلى أين ينتهي بنا الترحال . .

امتقع وجه الأمير حين أدرك أن هؤلاء دراويش من مملكته التى هجرها منذ سنوات . . قال لهم : أنتم ضيوف الليلة . . ثم استدعى صبي الخان وأمره بالطعام والشراب . . ثم تذكر أنه لا يحمل نقوداً ولكنه لم يعبأ . .

أكل الدراويش وإحتسوا شرابهم وإرتاحوا في أماكنهم . . إنتظر الأمير قليلاً ثم سألهم : كيف تمضى الأحوال فى مملكة المدائن السبعة . .

قالوا : هى جحيم يفر منه من يستطيع الفرار . .

إندهش الأمير وسأل : لماذا . .

إقترب منه درويش كهل وقال له : تسأل لماذا . وسنقول لك لماذا؟ إن هناك درويشاً أحمق . . رجلاً مثلنا . . كان هذا الرجل أميراً على البلاد ، وكان ظالماً ولكن ظلمه كان محتملاً ، ثم طاف عليه ذات يوم درويش أحمق منه ، تحدث الدرويش مع الأمير فامتزج حمق هذا بحمق ذلك ، وخرج الأمير تاركاً قصره وملكه . .

أرأيت أحمق مما نحكى لك . .

سأل الأمير : أترون أن ما فعله الأمير كان حمقاً ؟

قال درويش شيخ : أتراك مثل صغار الدراويش يعجبون بما صنع الأمير ، ألا ترى حماقته . . لقد خرج لتحقيق العدل ، فأى عدل يحققه درويش أعزل بغير سلاح ، لقد كان الأمير حاكماً ولو أراد الانصاف حقاً لوضع سيفه فى خدمة الحق وهو أمير ، أن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . . لقد دب الفساد فى المملكة بعد خروجه وانتشر الظلم وأصبح الناس يجأرون بالدعاء عليه .

صمت الدرويش وأحس الأمير أن الدرويش لا يحدثه عن مملكته وإنما يقرأ إحساساً خفياً في صدره ، وهو إحساس لم يبح به إبراهيم حتي لنفسه . . قال بعد قليل : ولكننا سمعنا أن الأمير أرسل إلى قائد جنده رسالة يأمره فيها برد المظالم والعدل بين الناس ، ما مصير هذه الرساله .

قال الدراويش : هذا ما سمعناه أيضاً ، ولكن هل تعرف ماذا وقع لقائد جنده . . لقد مات فى سجنه ميتة غامضه . . هل تعرف ماذا حدث للأمير إبراهيم نفسه . . لقد قتلوه بجرة من العسل . . أكل العسل وأكل معه السم الذى دسوه فى العسل . . ودفن بقبر مجهول .

سأل الأمير : من الذى يحكم مملكه المدائن السبعة الآن .

قال الدراويش : يحكمها ابن الأمير إبراهيم . . وهو جبار عنيد يبدو ظلم أبيه جوار ظلمه باهتاً شاحباً . .

جلس الأمير في الخان ممتقع الوجه لا يعرف ماذا يقول ، كان ذهنه

يجرى فى كل إتجاه مثل حصان مفزوع فى معركة ، وإشتد به العجب أنه لم ير هذا المعنى الذى رآه الدرويش رغم أن المعنى كان واضحاً في الدلالة على نفسـه . .

لقد كان يريد تحقيق العدل فحقق الظلم ، وكان يريد رد المظالم فزاد فيها . . لقد زرع حقله بالشوك ، ووقف مذهولاً حين لم يظهر العنب عند الحصاد ، كان ينتظر الأعناب . . كان يتوقعها رغم أنه زرع الشوك .

جاء صاحب الخان وهمس بكلمة فى أذن الأمير فأستاذن الدراويش ونهض معه . . وصل إلى باب الخان فوجد الجارية تنتظره . .

سألها مكفهراً : ماذا تريدين منى الآن . .

قالت وهي تمد يدها بكيس صغير : لقد نسيت نقودك فى غرفتك .

قال الأمير مندهشاً : لست أملك نقوداً . . ولم أنس شيئاً فى غرفتى .

سألته الجارية : كيف تدفع حساب الخان إذن . . هذه نقود ادخرتها منك . . خذها . .

ألقت إليه الكيس وإنصرفت فاستوقفها . . سار نحوها ثم أمسك يدها بقبضة حديدية وقال لها : لا تنامى بعد الآن فى فراشى . . هذا إنذار أخير . .

قالت الجارية : لقد غلبنى النوم . .

قال الأمير حانقاً وهو يعود إلى الخان : لا تدعيه يغلبك بعد ذلك . . هذا آخر إنذار .

توقف الأمير قبل أن يصل إلى الخان وقال للجارية : لا تغادرى الغرفة حتى أعود .. ولا تنامى قبل أن أصل ..

عاد الأمير إلى الخان فدفع حسابه وجلس مع الدراويش وراح يحاول إستدراجهم للحديث عن مملكة المدائن السبعة ، ولكنهم كانوا غارقين فى الحديث عن الكرامات .. كانوا يحكون عن خوارق سمعوها من الآخرين، ولم يشهدها أحدهم .. وسألهم الأمير ألم يشاهد أحدكم كرامة بنفسه فأدركوا أنه ينكر الكرامات ونأوا بجانبهم عنه فاستأذن ونهض ، عاد إلى غرفته .. كانت الجارية مستيقظه .. كان يقول لنفسه : لقد خذلنى عقلى الملىء بالحكمة والأسرار ، ماذا لو إستعنت بعقل فارغ كعقل الجارية .. من يدرى .. ربما تهدينى فى حيرتى ..

أحست الجارية أن الأمير يغلى بالغضب والحيرة ، قالت له وهى تترفق به أشد الترفق .

ـ يبدو الأمير معتكر المزاج .. هل أغنى له شيئاً يبهجه ..

قال الأمير بإكتئاب : ليست بى رغبة فى السماع ..

قالت الجارية : لا تغضب من الدروايش يا سيدى الأمير .. إنهم يقولون هذياناً ولا يقصدون ما يقولونه ..

قال الأمير : لقد قالوا الحقيقة ..

قالت الجارية فجأة وهى تقترب منه : وأنت .. ألم تكن تعرف الحقيقة؟

قال الأمير : كنت أعرف جزءاً منها . . وكنت أشك فيها أعرفه ، ولكننى لم أكن أتصورها بهذه البشاعة . .

قالت الجارية : ماذا ستفعل الآن ؟

قال الأمير : لا أعرف . .

قالت الجارية : لماذا لا تعود إلى قصرك وملكك وسابق مجدك . .

قال الأمير : لا أريد مجدى السابق . . فليس هناك أعظم من مجد القرب من الله ، المشكلة أننى أريد رفع الظلم الذى وضعته بخروجى من المملكة ، وأريد رفع الظلم الذى وضعه ابنى الأمير حين استبد بالحكم من بعدى ، كيف أفعل هذا كله . . وما هى الخطوة الأولى . .

قالت الجارية : عد إلى قصرك كما كنت . . تستطيع بسيف السلطان أن تحقق العدل وترد المظالم وتحكم بالعدل كما تحلم .

قال الأمير : لقد فكرت فى ذلك . . هل هذا ممكن ؟ ماذا يقول ابنى؟ وماذا يقول الناس ؟ لقد مضت الآن عشرون سنة على خروجى من الإمارة والقصر . . لقد تغير وجهى ولم أعد أعرف نفسى فهل يعرفنى الناس ؟

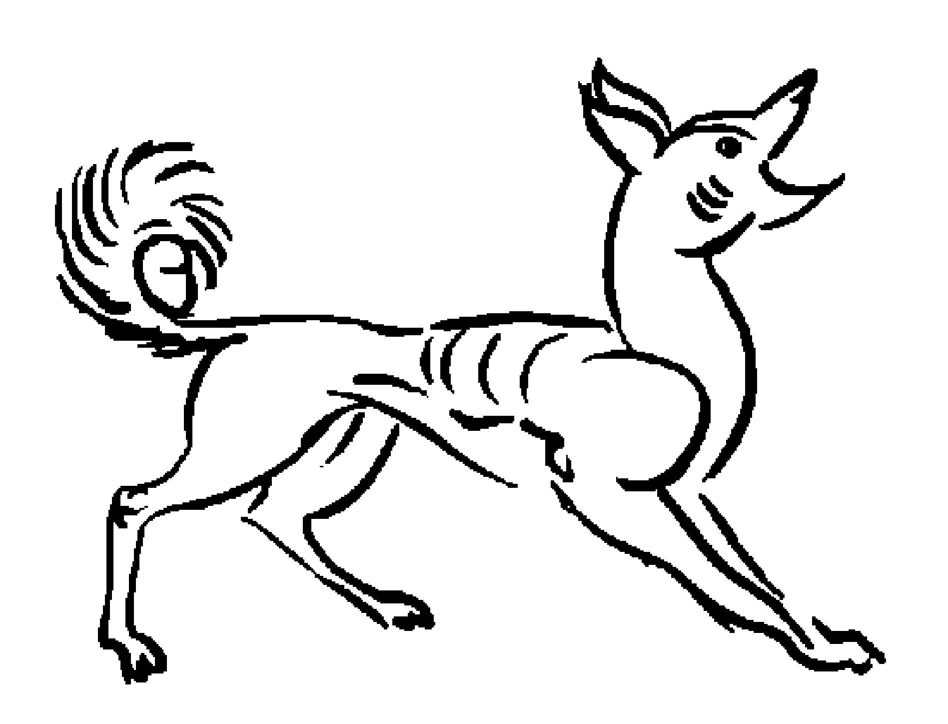
قالت الجارية : سوف يعرفونك . . وسوف يرحبون بقدومك . . وسوف يبتهجون لعودة العدل معك . . صدقني يا سيدى الأمير . . صدقنى !

جلس الأمير يفكر وصمتت الجارية . .

عقد الأمير عزمه على أمر وقال للجارية : غداً نسافر . .

قالت الجارية : إلى أين . .

قال الأمير : سأعود إلى القصر . . وليكن ما يكون .



١٩

بدأت رحلة العودة . .

سافر الأمير والجارية مع قافلة تتجه إلى مملكة المدائن السبعة . . كان الأمير نافذ الصبر ، يمتلىء بالقلق والمخاوف ، ان الهرب من أمام الغواية والشر أسهل كثيراً من مواجهتهما معا . . والتعامل معهما . .

فى بداية الرحلة سألته الجارية : هل يذهب سيدى الأمير بهذه اللحية الكثيفه الطويلة . . إن أحداً لن يعرفه فيها .

سأل الدرويش : ماذا تريدين . .

قالت الجارية : إحلق لحيتك . . ودع ملابس الدراويش المرقعة .

قال الدرويش : أفعل هذا عندما نصل . .

قالت الجارية : أخشى أن ينكرك الناس . .

قال الدرويش : لن ينكرنى أحد . .

قالت الجارية : أنت برىء يا سيدى الأمير . . كم معك من النقود؟

قال الدرويش : لا نقود معى .

أخرجت الجارية من ثيابها كيساً صغيراً يمتلىء بالجنيهات الذهب . . قالت للأمير وهي تقدمه إليه .

ـ لقد بعت كل أساورى وحلى . .

قال الأمير وهو يعيد إليها الكيس : لست محتاجاً إلى النقود . .

قالت الجارية : أتوسل اليك أن تقبل . .

أمسك الأمير بكيس الذهب وأخرج منه جنيهاً ووضعه أمام الجارية وسألها .

ـ صورة من هذه ؟

قالت الجارية : هذه صورتك يا سيدي الأمير . .

قال الأمير : لماذا أحتاج لصورتى على الذهب إذا كانت صورتى الحقيقية ماثلة وموجودة . .

تنهدت الجارية وقالت : يا مولاى . . صورتك علي الذهب أهم عند الناس من صورتك الحقيقية . . أنت رغم معرفتك بالحكمة والأسرار لا تدرى من أمور الدنيا شيئاً . .

توقف الدرويش عند تكية المولوية . .

بحث كثيراً عن كلبه فلم يجده ، سأل الجارية هل رأته فقالت أنها لم تره ولكنه بالتأكيد فى مكان قريب . .

كان الأمير الدرويش يريد أن يرى شيخ المولوية . . لقد أكرموه فى رحلته الأولى وهو يخرج من أدران الدنيا وضيقها وآلامها إلى سعة الحكمة

ويقترب من الســر . . ويريد الأمير أن يفضى بهمه كله للشيخ . . من يدرى . . لعل الشيخ يخرجه من قلقه . .

قيل له في البداية أن الشيخ فى الخلوة . . وهو لا يستطيع أن يرى أحداً أو يراه أحد . .

حدث أتباع الشيخ عن إسمه الحقيقى ، وقال لهم : لن أتجاسر على وقت الشيخ . . إنما هى لحظات أسمع فيها رأيه . .

ذهب الأتباع وعادوا يشيرون إليه أن يتبعهم . . سار الأمير حتى وصل إلى خلوة الشيخ وكانت جوار التكية ، رغم أنها تقع فى الجبال القريبة .

إحتضنه شيخ المولويه ورحب به وسأله : ما الذي جاء بك .

قال الأمير : لقد فكرت طويلاً فيما فعلته . . وعقدت أمرى على العودة إلى القصر . . هذا هو أقصر الطرق لتحقيق العدل . .

قال شيخ المولوية : تريد رأيى فيما تقوله .

قال الأمير : لهذا جئتك .

قال شيخ الدروايش : لا تذهب . .

سأل الأمير : لماذا ؟

قال شيخ الدراويش : سيقتلونك . . أنسيت أنهم حاولوا ذلك فى المرة الأولى . . إن لله جنوداً فى العسل . . فى المرة الأولى بعثوا إليك

بجنود فى العسل ، هذه المرة سوف يقتلونك بالسيف . .

سأل الأمير : بأى تهمة .

قال شيخ الدراويش : بتهمة إدعاء الإمارة . . بتهمة الخيانة . . بتهمة السطو على قافلة . . ليس المهم هو التهمة ، فهذا أمر سهل ولن يتعبوا فيه . . لا تذهب أيها الأمير ، وعد من حيث جئت . .

عاد الدرويش مشتت الفكر وفي حاجة لمن يسر إليه بدخيلة نفسه ، وجد الجارية تخيط قميصاً له فأمرها أن تترك كل شىء وتتفرغ لما يقوله . . أسرعت الجارية طائعة فحدثها عن زيارته لشيخ دراويش المولوية . . وحدثها عما قاله الشيخ . . وسكت ينتظر رأيها . .

سألته الجارية : هل أقنعك الدرويش بما قاله .

قال الأمير : لم يقنعني ، ولكنه خوفنى . . أتتصورين أنهم يقتلونني . .

قالت الجارية وهى تحس بالإنقباض فجأة : أخشى أن يحاولوا ذلك . .

قال الأمير : أنت لا تعرفيننى . . يكفى ظهورى ليعود كل شىء كما كان .

قالت الجارية : ستحتاج إلى المال . . خذ هذا الكيس . .

رفض الأمير مال الجارية وقال : لقد ضيعت جزءاً من طاقتى فى

السؤال ، لن أحدث أحداً بما نويته . . وسأتصرف بنفسى فى الأمر . .

قالت الجارية وإبتسامتها تتسع : هكذا يتكلم الأمير . .

توقف الأمير عن سؤال أحد ، وبدأ يبحث عن كلبه بلا جدوى ، لم يجد أحداً فى القافلة يذكره ، فرجح أن يكون الكلب قد تخلف ولم يلحق بالقافلة ، وعجب الأمير فى نفسه أشد العجب . .

لقد هجره الكلب حين انعقدت نيته على العودة ، فهل يكون هذا رأى الكلب في عودته . .

احترمت الجارية اهتمامه بالكلب ، وألمحت إلى أن غباء الكلب كان واضحا ، لقد سار مع سيده وهو درويش ، وهجره وهو يعود للإمارة . . وتخلى بغفلته عن أطباق لحم وعظام لا نهاية لها فى القصر .

تحركت القافله في طريقها إلي مدينة الأمير ، وقبل أن تصل القافلة للمدينة سألت الجارية الأمير : كيف ستدخل القصر وحوله الحرس . . ماذا لو كان الحرس من الشباب الجديد الذى لا يعرف الأمير ولم يره .

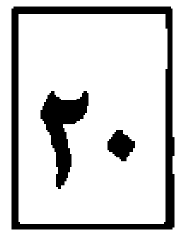
قال الأمير : لم أفكر فى ذلك . .

قالت الجارية : أعرف أحداً يستطيع إدخالنا إلى القصر . .

قال الأمير : لن ندخل القصر معاً . . سأدخله وحدى . .

قالت الجارية : كيف ؟

قال الأمير : لا أدرى حتى الآن كيف أفعل ، ولكننى سأحاول .



كان الأمير حسن .. ابن إبراهيم بن أدهم يتهيأ لتناول غذائه حين سمع جلبة فى القصر .. نظر لضابط الحرس فأسرع يتبين الضجة ، ثم علد بعد قليل وقال للأمير :

ـ لا شيء يا مولاى .. هذا درويش أحمق قبضوا عليه وهو يحاول دخول القصر .

سأل الأمير حسن : ماذا يريد .

قال الضابط : إنه يهذى يا مولاى كالدراويش بكلام غير مفهوم ..

عادت الجلبة تتصاعد وسمع صوت الأمير إبراهيم وهو يصرخ ـ إبعدوا أيديكم عنى أيها الكلاب .. أنا صاحب هذا القصر وأميره ..

استمع الأمير حسن وقال لضابطه .

ـ أحضروه هنا ..

جيء بالأمير إبراهيم ووقف أمام إبنه الأمير حسن ..

قال الأمير الصغير : ما هذا الهراء الذى تقوله .

قال الأمير إبراهيم : أنا أمير هذا القصر وصاحبه ، أنا أبوك ، أنا الأمير إبراهيم بن أدهم . . وأنت ابنى حسن . .

ضج الأمير حسن بالضحك وضج معه الواقفون أيضاً بالضحك . .
قال الأمير حسن : أيها الدرويش المأفون . . أتظن أنه يكفي أن تعرف أنني الأمير حسن لتصح دعواك فيما تهذى به . . إن الأمير إبراهيم الذى تتحدث عنه قد مات منذ عشرين سنة . . خرج وراء درويش أحمق مثلك ، ثم مات رحمه الله وقدس سره . .

قال الأمير إبراهيم : لم يمت إبراهيم . . مازلت حياً .

قال الأمير حسن : هذا من سوء طالعك أيها الدرويش . . لقد صبرت عليك كثيراً . . أدخلوه إلى السجن ، وحلوا عقدة لسانه لكى يتكلم عن حقيقته . . ربما كان له أعوان . . إبحثوا عن أعوانه . . هذا رجل يدعى الإمارة . . وينازعنا على السلطان . . حلوا عقدة لسانه . .

سيق الأمير إبراهيم إلى السجن مكبلاً بالحديد . . ولم يكد يصل إلى السجن حتى تم تسليمه إلى قائده لكى يحل عقدة لسانه ، مع توصية مشددة من الأمير أن يحلوا عقدة لسانه .

إحتفل قائد السجن بالدرويش الذى وصل إحتفالاً يليق بالتوصية التى وصلت معه ، وهكذا تم جلد إبراهيم حتى سال الدم من ظهره ، بعد ذلك وضعوا له الملح على جروحه وتركوه يعوى من الألم . .

سألوه فى البداية : ما أسمك .

قال : إبراهيم ابن أدهم .

سألوه : الا يشبه هذا الأسم مع إسم الأمير الراحل الذى يحكم إبنه الآن ؟

قال إبراهيم : ليس هناك تشابه . . أنا هو الأمير الراحل . .

سألوه : ما الذى كنت تفعله فى قصر الأمير . .

قال : هذا قصري .

كانت هذه أسئلتهم له قبل أن يجلدوه . . أعادوا عليه الأسئلة مرة أخرى بعد جلده . . كانت أجاباته هي الصمت والتأوهات . .

قال قائد السجن وكان يشرف على عملية التعذيب :

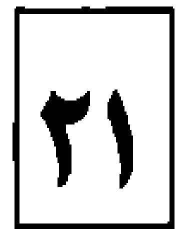
ـ أيها الدرويش نحن لا نريد تعذيبك ، ولا مصلحة لنا فى أهانتك وضربك ، نحن نريد أن نعرف عدداً من الحقائق . . من وراءك ؟ من الذى دفعك لهذا ؟ هل إتصل بك أحد من الممالك المجاورة . . ؟ هذا ما نريد أن نعرفه . . كان الأمير فى البداية يجيب بالصدق ، وينفى أن وراءه أحد ، فلما بدأوا يعذبونه لأنه يقول الصدق ، عمد إلى الكذب أكثر من مرة ، إدعى فى إحدى المرات أنه يعمل لحساب الدراويش ، ولكنهم ضحكوا علي إجابته وزادوا من تعذيبه . . فعدل عن هذا القول لقول آخر . .

وتعاقب عليه المحققون ، فكان يقول لكل واحد منهم شيئاً ، فلما تضاربت أقواله وحاروا فيه زادوا فى تعذيبه حتى أشرف على الهلاك . . بالنسبة للأمير كان ألمه الجثمانى يبدو فاتراً جوار ألمه النفسى . . كان أكثر

ما يعذبه أنه واجه إبنه ، فلم يعرف على وجه التحقيق هل عرفه الإبن وأنكره ، أم أنه لم يعرفه أساساً . .

أيضا كان كل شيء فى مدينته قد تغير . . إنه لم يصادف وجهاً يعرفه حتى الآن ، كل وزرائه وقادته تغيروا . . لم يعد هناك من يعرفه غير الجارية . . ووصل الأمير إلى مرحله الحكمة فى سجنه ، وكان ذلك يوم لم يعد لديه شك فى حماقته .





جلس الأمير إبراهيم محطماً فى زنزانته . .

إختصوه بزنزانة ضيقة . . ليس فيها غيره . . وكانوا يلقون إليه رغيفاً من الخبز مرتين فى اليوم ، وأحياناً يلقونه مرة وينسونه فى الأخرى . .

وهزل الأمير إبراهيم وطعن فى السن ومرض ولكن عقله بقى على صفائه ، كان حين يخلو بنفسه يستعيد فترة الدراويش والكلب مثل حلم ساحر غرق فى أهوال الألم بعد ذلك ، لقد كان أحمقاً حين ترك علكه وخرج وراء درويش ، وكان أحمقاً حين عاد كدرويش يطلب الأمارة ، أراد العدل فأوقع الظلم ، وأراد تصحيح الظلم فلم يستطع . .

وحار إبراهيم أى شيء كان ينبغى عليه فعله ، وأى شيء كان ينبغى فيه الفرار . . ترى أين كلبه الآن . . هل يجرى فى أحد الحقول وراء أنثى ، أم أنه الآن كلب درويش آخر ، أم مات مثلما يموت كل شيء حى ، كان الأمير مستسلماً لأفكاره حين فتح باب زنزانته ودخل قائد السجن ومعه الجارية . .

سأل قائد السجن الدرويش : هل تعرف هذه المرأة . .

نظر إبراهيم إلى الجارية فرآها تبكى . . كان بكاؤها هذه المرة صادقاً وفاجعاً . . لم يرد إبراهيم على سؤال القائد . . كان يفكر ماذا يقول ، لقد علمه السجن أن عليه أن يجيب كما يريد السائل . .

عاد قائد السجن يسأله : هذه المرأة تزعم أنك زوجها ، وأنك مجنون تتخيل أشياء . . هل هذا صحيح . .

قال إبراهيم . نعم . .

قال قائد السجن : هذه المرأة تريد تقديم إلتماس إلى الأمير بجنونك ، ربما عفا عنك الأمير . . هل هى صادقه . .

هز إبراهيم رأسه موافقاً . . وهنا خرج قائد السجن وترك الجارية . . أسرعت الجارية نحو الأمير تحتضنه وتقبل يديه وهى تبكى ، وتحول الأمير إلى طفل فى أحضانها ، وهمست له الجارية بصوت خافت .

- إبنك الأمير ينوى قتلك ، سنقدم التماساً لكسب الوقت ، وقد دبرت خطة لهربك . . خذ هذا الذهب . . وانثره على حراسك . .

. . . . .

. . . . .

أمر الأمير بإستدعاء الدرويش للنظر فى إلتماسه . .

وقف إبراهيم بن أدهم الدرويش المدعى ، أمام أمير المملكة وإبنه حسن . . كان قاضى القضاة موجوداً ، وكان المفتى موجوداً ، وكان هناك من رجح إبراهيم أنهم وزراء . . كما كان هناك جمع من الضباط والجنود . .

تأمل إبراهيم وجوه الكبراء فلم يعرف فيهم أحداً . . وغاص قلبه فى جوفه ، كانت الجارية تقف وحدها أمام كل هذا الجمع . .

قال الأمير حسن : أيها الدرويش . . جاءنى إلتماس من زوجتك أنك مجنون تتخيل أشياء . . وهي تطلب عفونا عنك رحمة بجنونك . . ماذا تقول فى ذلك . .

لا يدرى الأمير إبراهيم بن أدهم لماذا نسى السؤال بعد أن سمعه وطفت على ذاكرته كلمة يعقوب « فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون » . . غير أنه لم يفتح فمه بشىء . .

التفت الأمير إلى القاضى وسأله : ما حكم من يدعى الأمارة دون حق

قال القاضى : حكمه السيف . .

التفت الأمير إلى المفتى وسأله نفس السؤال فكان جوابه السيف ، وطاف الأمير يسأل رأى الوزراء فكان جوابهم جميعاً واحد . . وشاهد الأمير إبراهيم بن أدهم السيوف تتكاثر حوله فقال :

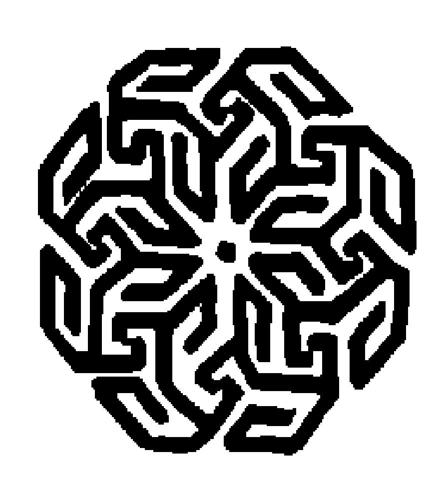
- كنت خارج عقلى ، كان الموضوع كله جنوناً . . صحيح أنه مزاح ثقيل ولكن ماذا نفعل . .

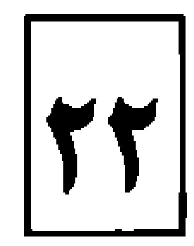
ضحك الأمير وقهقه بقية الحضور ، وأمسك الأمير إلتماس الجارية وقال : كان مزاحاً . . الالتماس مرفوض . . والحكم هو السيف . . رمى الأمير حسن بالورقة على مكتب أمامه . . وسأل الحاضرين .

ـ كم يوما نستضيف الدرويش حتى يحكم فيه السيف .

قال القاضى : أسبوع واحد يكفى . .

إنحنى الأمير وكتب فى إلتماس الجارية . . بعد أسبوع ينفذ فيه الحكم، كتبها ورفع رأسه وتحاشى أن ينظر فى عين الدرويش . . كان إبراهيم ابن أدهم يسأل نفسه : لماذا يتحاشى الأمير النظر إلى . . هو يعرفني أذن . لقد عرفنى بغير شك . .





جلس الأمير فى سجنه يستعرض ذكريات عمره . . مدركاً أن أمامه ستة أيام ثم يهوى السيف على رقبته وتنتهى حياته . .

لقد نصحه شيخ المولوية وحذره من الذهاب . . انه القتل . . هذا ما قاله له ، ولكنه رفض أن يستمع إلى النصيحة . .

كان ساذجاً يتصور أنهم سيحنون رؤوسهم له ويحتفلون بعودة أميرهم إلى قصره . . لشد ما كان ساذجاً . .

تحسس الجنيهات الذهب فى جيبه وإطمأن علي وجودها وتمدد فى فراشه الخشن ونام . .

إيقظه بعد منتصف الليل يد باردة تلمس رأسه ، نهض من نومه فوجد الجارية . . قالت له هامسة : إنهض معي ولا تحدث صوتاً ، لقد خدرت الحرس جميعا بشراب منوم . .

نهض الأمير وخرجا معاً . .

كانت الجارية تمسك بسلسلة من المفاتيح كانت تفتح بها الأبواب

المغلقه حتى وجد نفسه فى نهاية الأمر يقف أمام الباب الخلفى للسجن .. كان هناك حصان ينتظره ..

قالت له الجارية : هذا حصانك .. أخرج به من المدينة الآن .. وأخرج بعدها من المملكة كلها ..

سألها الأمير : وأنت .. ألا تأتين معى .. قالت الجارية : هل تريد أن آتى معك ..

قال الأمير : نعم ..

قالت الجارية : سأحاول أن ألحق بك .. أذهب أنت الآن .. وأسرع ..

إمتطى الأمير حصانه ونظر حوله ليحدد أقصر إتجاه يخرجه من المدينه ولكز الحصان فأنطلق الحصان يعدو ..

كان الأمير يلف رأسه بوشاح قدمته له الجارية وهى تمضى .. وتشمم الوشاح فكان ينبعث منه عطر أنثوى لطيف .. كانوا قد حلقوا له رأسه ولحيته وكان عليه أن يختفى فى مكان أمين حتى يموت الأمل فى العثور عليه ، ثم ينطلق خارجاً من المملكة كلها ..

وسار الأمير وهو يعدو بحصانه صوب الجبل .. عاد إلى نقطة البدء التي دخل منها أول مرة وهو يسير حافياً وراء الدرويش .

كان كهفه الجبل الذى إختبأ فيه أول مرة على حاله كما هو ، لقد ترك هناك طبقاً كان يأكل فيه ، وترك فراشاً كان ينام عليه .. تغير الطبق

ورث الفراش ولكنهما معاً ابقيا الكهف لصاحبه ، فمن عادة الدراويش إذا إختاروا مكاناً أن يتركوا فيه ما ينبيء الآخرين بأن من حقهم دخول المكان ، ولكن ليس من حقهم البقاء فيه . .

كانت الدنيا تميل إلى البرودة ، ووجد الدرويش فى سرج حصانه لفافة ربطت جيداً ، ولم يلحظها إلا الآن . .

فتح اللفافة فوجد طعاماً اعدته الجارية . . قال فى نفسه .

ـ هذه امرأة تفكر فى كل شيء . . لقد كانت المسكينة تظن أنه في طريقه لإستعادة ملكه ، وشجعته على ذلك ، كانت هى الأخرى مخلوقاً بريئاً يجهل حقائق الدنيا . .

أكل الأمير وشرب جرعة من الماء ونام فى الكهف حتي الصباح . . كان يطلق حصانه يرعي فى المزارع القريبه ، وكان الحصان يعود إليه عندما يسقط المساء . .

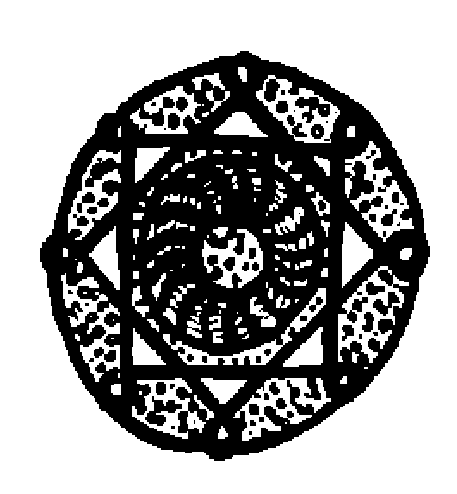
وإفتقد الأمير كلبه . . كما إفتقد جاريته ، ومضى يفكر أنها أحبته وأخلصت له . .

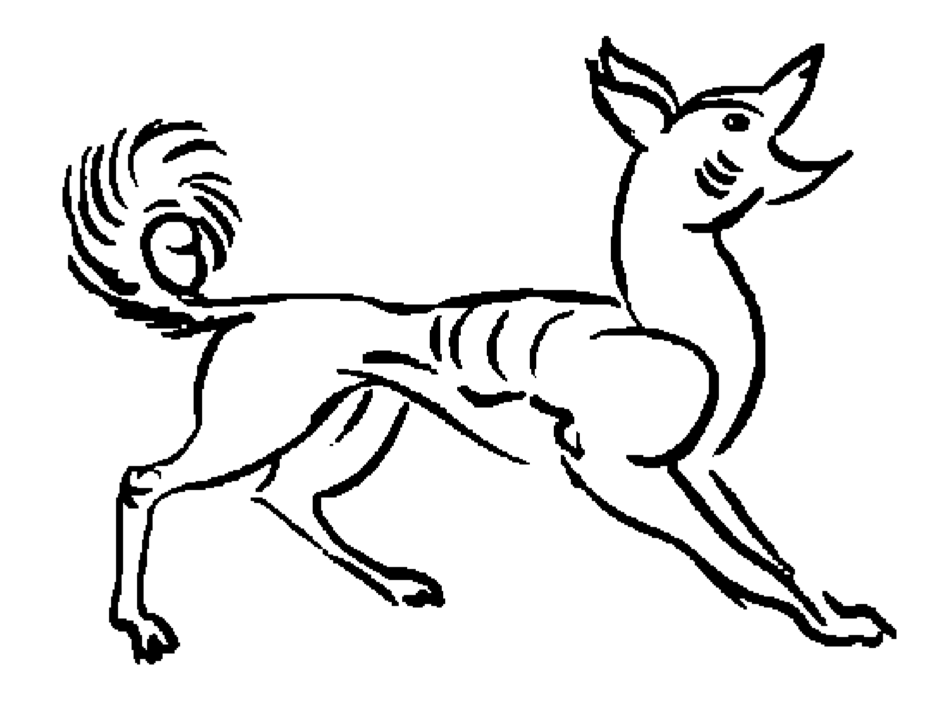
وتنكر يوماً فى ثياب التجار ونزل إلى الخان يتسقط إخبارها فعلم أن جنود الأمير قبضوا عليها بعد هربه وهي تتهيأ لمغادرة المدينة ، ووضعت فى السجن ، وعذبت عذاباً رهيباً لتفشى سر زوجها الدرويش ولكنها رفضت وقيل أنها ماتت بسبب تعذيبها فى السجن . وقيل أنها بجت . وإنطوى الأمير على نفسه وعاد إلى كهفه ، ثم رحل فى المساء الثانى قاصداً الخروج من المملكة كلها . .

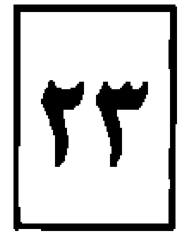
خرج من مملكته وسار يقطع الصحراء .

إمتدت أمامه الصحراء بكل أسرارها وصمتها فإنطلق فيها . . كانت أحزانه تتساقط منه كلما تقدم فى الصحراء . . لقد فهم كل شيء بعد أن فات أوان الفهم ، وصار الفهم بلا جدوى ، كان يزداد توغلاً فى الصحراء ويزدادإنخلاعاً من ذاته . . ويزداد فى نفس الوقت قرباً منها .

● ● ●







خرج الأمير الدرويش من صحراء مملكته إلى مملكة ثانية بعيده .. أرضاه أنه نجا بنفسه ..

آوى إلى خان للدراويش وقضى فيه ليلته ..

كان محطم الجسد ولكن روحه كانت تحس بسلام عظيم .. آوى إلى غرفته واستحم حماماً ساخناً وتعشى بلقمه من الخبز الجاف وعدة زيتونات وكوب من اللبن واخلد إلى النوم شاهد فيها يرى النائم حلماً غريباً ..

رأى نفسه يسير فى الصحراء وحده .. كان يقطع الطريق بمفرده دون قافلة وبلا زاد ولا ماء ..

أحس بالعطش الشديد فتوقف ..

دار بعينيه حوله فلم يجد شيئاً .. ثم شاهد على البعد نهراً يجرى وسط الصحراء .

كان مشهد النهر غريباً ..

إن مياهه تلمع تحت الشمس ولكن لا وجود للخضرة حوله ..

وأحس الدرويش بالدهشة لوجود هذا النهر فى هذا المكان . . وهكذا سار فى إتجاه النهر . .

كان النهر يتعد عنه كلما سار . . وتوقف يسأل نفسه . . أيكون ما أراه سراباً كالذى يعرفه السائرون فى الصحراء . . قال لنفسه : أسير فترة ثانية وأقطع الشك باليقين . . سار قليلاً ثم فوجىء بشيخه الدرويش يظهر له . .

لم يكد يرى شيخه حتى زايله العطش وأسرع نحوه تلقاه شيخة بالأحضان . .

كان شيخه قد مات . . ولكنه يراه فى المنام حياً سليماً معافى تبرقرق وجهه بالسكينة الراضية والفرح . .

قال لشيخه : لم تعرف ما حدث لى . .

قال شيخه : لقد حذرتك من الذهاب . .

قال الأمير : لقد ظننت إن مجرى ظهورى يكفى لعودتى للإمارة .

قال شيخه : لقد كنت ساذجاً . .

قال الأمير : أريد أن أسألك سؤالاً واحداً أو سؤالين سكت شيخه وهز رأسه موافقا وقال :

ـ هات ما عندك : ـ

قال الأمير : هل عرفنى إبنى أم لم يعرفنى . . ؟

هل عرفنى وأنرنى أم إنه تحت تأثير السلطان لم يعد يرى ؟

إبتسم الشيخ وقال ـ كنت أحسبك تعرف الجواب .. لقد كان الجواب واضحاً لك .. كيف غفلت عن رؤيته .

قال الأمير : هذا ما يمزقنى أيها القطب .. هذا ما يؤلمنى .. لقد رأيت فى عينيه أنه عرفنى .. ولم أصدق نفسى .. أتلد خمر السلطة كل هذه القوة ..

هز الشيخ رأسه بالإيجاب ، وعاد الأمير يسأله

ـ ماذا أفعل الآن ... بماذا تنصحنى ؟

قال شيخه : لقد إخترت طريقك منذ عشرين سنه .. لماذا تتردد الآن وأنت تكاد تبلغ نهايته ..

قال الأمير الدرويش : لم أعد أعرف شيئاً .. لم أعد واثقاً من شىء أو راجياً لشىء .. لقد تقطعت علاقاتى بكل شىء .. لم يعد هناك ما يربطنى بشىء ..

قال الشيخ :: الآن تبدأ .. الآن تبدأ .. تذكر الأمير أنه يحس بالعطش ويريد أن يشرب ..

قال لشيخه : هل أجد معك قليلاً من المياه ..

أجابه الشيخ : النهر قريب منك .. لو سرت قليلاً .. إشرب منه ما تشاء .. لكن لا تتوقف .. إستمر فى سيرك .. إذهب إلى مكة .. ثم إختفى شيخه فجأه كما ظهر فجأه ..

واستيقظ الأمير من نومه ..

راح يفكر فيما رآه فى منامه ، لقد أمره شيخه أن يستمر فى سيره . . غادر المدينة إلى الجبال . .

مكث فيها فترة ثم تركها إلى الصحراء . . . ثم قرر السفر إلى مكة .

كان عليه أن يمر ببلدين تشقهما الأنهار ، قبل أن يصل إلى صحراء الجزيرة العربية . .

فى البلد الثانى لاحظ أن قميصه قد إنقطع ويحتاج إلى ترقيع . .

جلس جوار النهر وأخرج الإبرة والخيط ومضى يشتغل فى قميصه . .

ثم وقعت منه الإبرة فى مياه النهر .

وانحنى على النهر بحثاً عن إبرته . . أراد أن يقول :

ـ أين إبرتى التى وقعت فى مياه النهر ولكنه خجل أن يسأل ، إن هذا يعنى أنه يطلب الكرامه . .

نهض من مكانه وترك قميصه جوار النهر وسار . . لم يكد يسير خطوتين حتى سمع نباحاً مألوفاً لديه . . إلتفت خلفه فوجد كلبه يسرع نحوه وهو يمسك قميصاً فى فمه . . تأمل الدرويش القميص الذى يحمله الكلب فوجده قميصه ، ولكنه لم يكن مرقعاً ولا قديماً ، إنما كان جديداً كأنما إشتراه بالأمس . .

إرتدى القميص وراح يربت على رأس الكلب ثم عاود السير . .



« كان مليكاً يحكم سبع ممالك .

وكان يسلم أيامه لمباهج الحياة اليومية بكل ما فيها من أنس ولهو وترف، ثم دخل حديقة قصره درويشٌ ، يتبعه كلبه .

سأل الدرويش :

ـ صاحب هذا القصر حرٌ أم عبد .

أجابوه بغضب :

ـ هو حرٌ أيها الدرويش الأحمق .

قال الدرويش :

ـ هذا ما حسبته . . لو كان هذا عبداً لله ما فعل .

ويتأثر الأمير، ويخرج وراء الدرويش حافياً، ويبدأ رحلة حياته الثانية ، وهى رحلة هدفها البحث عن الذات والعثور على الحقيقة ، وتحقيق الصفاء النفسى والسلام الداخلى » .

هذه القصة القديمة التى ترد فى آثار العارفين بالله هى المادة الخام التى استخدمها الكاتب الكبير « أحمد بهجت » فى مزج روايته «الأمير والدرويش» فهى رواية إنسان يبحث عن نفسه، محاولاً أن يرتفع على جاذبية الطين التى تشده إلى الأرض .

« الناشر »

